علي فكري

السمير المهذب

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

السمير المهذب

مجموعة قصص تهذيبية ، وحكايات خلقية ، وأمثال أدبية

تأليف واختيار وتعريب

السيد

علي فكري

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية

بيروت لبنان

١ — وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

٢ — إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .

٣ — أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي .

٤ — أَدَبُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ ذَهَبِهِ .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فهذا الجزء الثالث من كتاب (السمير المهذب) وهو يشتمل :

أولا ـ على شرح الآيات القرآنية الواردة فى منهج وزارة المعارف الحديث (قسم التهذيب ـ مقرر السنة الثالثة) وبيان ما تضمنته من الفضائل .

ثانياً ـ على حكايات وأمثال تطبيقية على موضوعات هذه الآيات .

ثالثاً ـ على حكايات وأمثال أخرى فى بيان بعض الفضائل التى لم يرد ذكرها فى الجزأين السابقين ، وقد رأينا ضرورة ذكرها إتماماً لمعرفة جميع الفضائل وأضدادها ، حتى يكون الطالب على علم تام بها .

رابعاً ـ على نبذة فى حياة الأئمة الأربعة

هذا وإنى أحمد الله على انتشار هذا الكتاب فى مصر والأقطار الإسلامية شرقاً وغرباً وقدعهدنا بطبعه إلى حضرات السادة أصحاب دار الكتب العلمية

وإنى أزف لحضرات القراء بشرى ترجمته إلى بعض اللغات الشرقية وبشرى تقرير دراسته فى مدارس تونس والأقطار الإسلامية الأخرى .

وفى هذا دليل كاف على جودة الكتاب ومنفعته .

وفى الختام أرجو أن يكون من مطالعة هذا الكتاب ، ما أرجوه من الفائدة والنفع لجميع الطلاب ، وأسأله تعالى حسن المآب وجزيل الثواب .

السيد

على فكرى

رئيس المفتشين بدار الكتب المصرية سابقا

القسم الأول

١ — الاقتصاد

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » (الإسراء)

أمر الله جل شأنه بالاقتصاد فى العيش ، واتخاذ السبيل الوسط بين الإسراف والتقتير ، ونهى عن البخل والتبذير ، ممثلاً حالة الأول بحال من كانت يده مغلولةً إلى عنقه ، مضمومةً إليه ، مجموعةً معه فى الغل ؛ بحيث لايستطيع التصرف بها ؛ وحالة الثانى بحال من يبسط يده بسطاً ؛ بحيث لايتعلق بها شىء مما تقبض الأيدى عليه ، مبيناً ما ينتج عن البخل من المذمة واللوم ، وعن الإسراف والتبذير من الحسرة والندامة ، حيث لايجد شيئا ينفقه .

٢ — أدب الحديث

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » (الحجرات)

تشتمل هذه الآية على صنوف الآداب التى أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه ﷺ من الإجلال والتعظيم .

ومعناها : لا ترفعوا أصواتكم عند محادثتكم له ﷺ ، ومكالمتكم معه إلى حد يكون فوق مايبلغه صوته ﷺ ؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وترك الاحترام له ﷺ ؛ لأن خفض الصوت ، وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير عادةً .

ولا تجهروا له بالقول ، كما يجهر أحدكم لأخيه إذا كلمه ، لأن ذلك إنما يكون بين الأكفاء ، الذين ليس لبعضهم على بعض مزية ، توجب احترامه وتوقيره ، مع ما فيه من الجفاء فى مخاطبته ﷺ وعدم الأدب معه .

ثم علل سبحانه وتعالى ماذكره بقوله : « أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ، والجهر له بالقول ، كما يجهر

أحدكم لأخيه إذا كلمه خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يشعر ولا يدرى .

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت وحث عليه ورغّب فيه فقال :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله إجلالًا له وتعظيماً أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوىٰ ، وجعلها أهلًا ومحلًا لها ، وكان جزاؤهم لذلك مغفرةً وأجراً عظيماً .

٣ — إكرام الوالدين

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » (الإسراء) .

أمر الله أمراً جازماً ، وحكم حكماً قاطعاً ، بتوحيده وعبادته ؛ وبرّ الوالدين، والإحسان إليهما ، وفى هذا الاقتران من الدلالة على تأكد حقهما ، والعناية بشأنهما ، ما لا يخفىٰ على كل عاقل ؛ ثم شدّد فى الأمر بمراعاتهما ، حتى لم يرخص بالكلام معهما بأى كلام يكون من ورائه تضررهما ، وتكدر

خاطرهما ؛ بل الواجب عليه فى هذه الحالة ، أن يقول لهما قولًا ليناً جميلًا سهلًا ، خصوصًا إذا كانا كبيرين ، فلا يصح أن يقول لهما أى قول يجلب غضبهما ، حتى التأفف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ، بل تجب معاملتهما بالحسنى ، واستعمال القول اللين الطيب، مع الأدب والاحترام ، وأن يخفض لهما جناح الذل والتواضع ، لأنهما أولى بالشفقة والرحمة ، وقد حثّ الله على برّهما ، والإحسان إليهما ، بطلب الدعاء لهما من الله، أن يرحمهما برحمته الباقية بقوله : ربّ ارحمهما رحمةً مثل رحمتهما بى ، وتربيتهما إياى فى الصغر .

٤ — إطاعة أولياء الأمور

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ » (النساء) .

أمرنا الله عز وجل، بإطاعة أمره، وتجنب نواهيه، كما أمرنا بإطاعة رسول الله ﷺ فى كل ما جاء به ، واتباع سننه .

وأولو الأمر ، رؤساؤنا الذين يسعون فى جلب الخير لنا ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا ، ويمنعون تعدى بعضنا على بعض ، حتى لا يختل النظام ، والأمن العام ، فلا يظلم القوى الضعيف ، ولا يتعدى الأشرار الخبثاء على الناس الذين كملت أخلاقهم، وطابت نفوسهم ، وحسنت سريرتهم، وتمتنع السرقة والنهب ، والسلب ، والقتل .

فالواجب يقضى علينا أن نحترمهم ، ونعظمهم ونطيع أوامرهم، ولا نعصى لهم أمراً ؛ فإذا أطعناهم كما أمرنا الله تعالى ، واحترمناهم، وعظمناهم رضوا عنا ، وأسرعوا إلى السعى فيما فيه مصلحتنا وراحتنا ، واطمئنان بالنا .

أما إذا خالفناهم، فنكون قد خالفنا أوامر الله، وما تقضى به علينا الآداب والواجبات ، وتتعطل مصالحنا ، وتتكدر خواطرنا .

ومن ذا الذى يرضى لنفسه الكدر والحزن ؟ أو أن يُنسب لمخالفة أوامر ربه ، ومخالفة الآداب والواجبات ؟ .

٥ — التحية وآدابها

قال الله تعالى : «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً» (النساء) .

فى هذه الآية الكريمة إرشاد من الله لعباده المؤمنين ، وتعليم لأمة نبيه محمد ﷺ وقد هيأ الله لنا روابط الألفة والإخاء والمحبة ، بالتحية وهى السلام .

فإذا سلّم عليكم المسلم ، فردوا عليه السلام ، بأفضل مما سلم عليكم .

فإن قال لكم : السلام عليكم .

فقولوا له : عليكم السلام ورحمة الله .

وإن قال لكم : السلام عليكم ورحمة الله .

فقولوا له : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وليس في السلام زيادة على ذلك، أو ردُّوا عليه بمثل ماسلم عليكم واقتصروا على مثل اللفظ الذى جاء به .

وإنما اختار الشرع لفظ السلام على لفظ حيَّاك الله مثلًا؛ لأنه أتم وأكمل وأحسن ، أما قوله « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً » أى يحاسبكم على كل شيء من أعمالكم ، ويدخل فى ذلك ما أمروا به من رد التحية .

ومن تأمل قليلًا فيما يترتب على البداءة بالتحية ، وحسن الرد من التوادّ والتحابّ ، علم حكمة مشروعية هذه الآداب ، ومكارم الأخلاق .

٦ — أدب الزيارة

قال الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَاتَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ . وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » (النور) .

ترشد هذه الآيات الكريمة إلى بيان ما أدب الله به عباده المؤمنين ، إذا زار أحدهم الآخر .

فبيَّن جل شأنه ، أنه لا يصح لأى شخص أن يدخل فى بيت غير بيته ، إلا بعد أن يستأذن من أهله فى الدخول ، ويسلم عليهم ويقول لهم : السلام عليكم أأدخل ؟

فإن لم يجد أحداً فى البيت ، أو وجد ، وقيل له : ارجع ، فليرجع من غير معاودة استئذان مرةً أخرى . وعليه بعد ذلك أن ينصرف ، ولا ينتظر طرفة عين ، فإن ذلك خير له وأفضل ، لما فيه من سلامة الصدر ، والبعد عن الريبة ، والفرار من المنكر .

هذا إذا كانت البيوت معدَّة لسكنى أناس مخصوصين ؛ أما إذا كانت معدَّة ليدخل فيها كل من له حاجة تقصد منها ، كالفنادق التى فى الطرق يأوى إليها المسافرون للمبيت فيها ، وغيرهم ، وبيوت التجار وحوانيتهم التى فى الأسواق ، فإنها معدَّة لأن يدخلها كل واحد يريد الشراء ، فمثل هـــذه المحال لا بأس من الدخول فيها بغير استئذان .

فالواجب علينا أن نعمل بأوامر الله ، لنكون من المقربين المحبوبين عند الله والناس أجمعين .

٧ — احترام الغير والنهى عن التجسس والغيبة

قال الله تعالى : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ . يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

ترشد هاتان الآيتان الكريمتان إلى ما علمنا الله من الصفات الحميدة ، والأخلاق المستحسنة ، وهى : ألّا يسخر أحد من أحد ، ويستخف به ويحتقره ، وألّا يعيب أحد على أحد بشىء يكرهه ، وألّا يدعو أحد أخاه بقلب يكرهه ، وألّا يسىء ظنه بأحد من إخوانه المؤمنين ، وألّا يبحث ويفتش عن عورات المسلمين ومعايبهم ، ويستكشف عما ستروه ، وألّا يذكر أحد أخاه بما يكرهه فى غيبته ، فإن ذلك كله مما نهى الله عنه ، ورغب فى التباعد منه .

١ — فنهى الله جميع المؤمنين والمؤمنات عن أن يستهزئ بعضهم ببعض فلا يحل لمؤمن أن يهزأ بأخيه المؤمن لفقره ، أو لذنب ارتكبه أو لأنه رث

الهيئة ، أو ذو عاهة فى بدنه ، أو لغير ذلك ، فلعله أخلص ضميراً ، وأنقى قلباً ، وكان خيراً منه عند الله تعالى .

كما أنه لا يجوز لمؤمنة أن تحتقر أختها المؤمنة ، لسبب ما ، فربما كانت خيراً منها عند الله تعالى ؛ لأن أحسن الناس منزلةً عند الله المتقون ، العاملون بشرعه ، من غير نظر إلى فقر أو جمال ، أو غير ذلك من الأحوال الظاهرة .

٣ — ونهى الله أن يعيب أحد غيره بقوله : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أى لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل ، أو إشارة ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فمتى عاب المؤمن أخاه المؤمن ، فكأنما عاب نفسه . وهذا أدب كبير أدب الله به عباده المؤمنين ، ليكون سبباً فى ألفتهم ، واتحادهم ، وارتباطهم بعظيم المودة ، ووثيق المحبة .

٤ — ونهى الله أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه بقوله : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » أى لا يدع أحد أخاه بلقب يكرهه ، لأن ذلك يزرع فى القلوب الضغينة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بزواله ، ولذا سمى جلّ شأنه التنابز بالألقاب ، الذى هو داعية الحقد والبغض ، فسقاً فى قوله :

« بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ » (الحجرات) .

٤ ـ ونهى الله عن سوء الظن بأحد من المؤمنين ، وهو مجرد التهمة التى لا سبب لها ، كأن تتهم غيرك بشىء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضاً ، فليجتنب الكثير منه .

٥ ـ ونهى الله عن البحث والتفتيش عن عيوب المسلمين وعوراتهم واستكشاف ما ستروه ، فإن فى ذلك فضيحة ، وتعرضاً لما لا يعنى ولا يفيد .

٦ ـ ونهى الله عن الغيبة بأن يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته ، أى لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته ، سواء كان ذلك باللسان ، أو بالفعل ، ومنه الإشارة والكتابة وغيرها ، فذلك كله مما حرمه الله ونهى عنه ، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً ، ذلك الأمر المستبشع طبعاً ، وعقلاً ، وشرعاً .

وبعد أن أمر الله جلّ شأنه بترك هذه المنهيات حثّ على التقوى فقال : « واتقوا الله » ثم علّل الأمر بالتقوى بقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » أى كثير التوبة لمن اتقاه ، واجتنب ما نهى عنه ، وتاب عما فرط منه .

٨ — النهى عن الحلف

قال الله تعــالى : « وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ » (البقرة)

أى لا تكثروا الحلف بالله تعالى ، لتكونوا بارّين متقين ، ويعتمد عليكم الناس ، فتصلحوا بينهم ، لأن فى كثرة الحلف بالله جراءةً على الله تعالى ، وإضعافاً لثقة الناس بكم .

ولأن الأيمان الكثيرة دليل على ضعف فى النفس ، ودناءة فيها ، لأن صاحبها يظن أن ذلك يقويها، ويرفع شأنها ، فترون أن الحلف من غير ضرورة يقلل مهابة الإنسان ، ويضعف ثقة الناس به . ولهذا نهى الله تعالى عنه ، إلا عند الحاجة .

وقد نهى الله النبى عليه السلام عن إطاعة الحلّاف بقوله : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » أى لا تطع كثير الحلف فى الحق والباطل فإنه حقير فى الرأى والتمييز .

النهى عن النميمة

قال الله تعالى : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ » (القلم)

نهانا الله عن مصاحبة من لا أخلاق لهم من الناس ، ومجانبة المجالسة والمحادثة معهم ، وعدم طاعتهم فى كل ما يقولون ، وهم الذين بينهم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة .

١ ـ الحلّاف ، أى كثير الحلف سواء فى الحق أو فى الباطل ، قلما يتحرى الصدق فى أيمانه ، فهو عرضة على الدوام للكذب والخطأ ، فضلا عما له من الجراءة على الله تعالى وعلى أسمائه ، ومثل هذا تجب مجانبته وتحرم مخالطته .

٢ ـ المهين ، أى حقير الرأى والتدبير ، فطاعته ربما أوردت المهالك وجرت إلى أخبث المسالك ، لأنه يريد أن ينفع فيضر ، فطاعته مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر .

٣ ـ الهمّاز ، هو العيّابُ الطّعان ، لا تؤمن غوائله ، فهو اليوم له وفى غد عليه ، فضلًا عن أنه بطاعته يعد شريكاً له فى هذه المنقصة ، وهذه الرذيلة ؛ لأنه لا يعيب غيره ، ولا يطعن عليه إلّا لضعف فى مروءته ، وخسة فى أصله ، ولؤم فى طبعه .

٤ ـ المشاء بنميم ، هو النَّقال للحديث من قوم إلى آخرين ، ليفسد بينهم ، لا همّ له إلّا الإيقاع بين الناس ، والإفساد بينهم ، وإلقاء بذور الشقاق والخصومات بينهم ، وإيغار الصدور ، وتوليد الشرور ، ومثل هذا تجب مجانبته ، وتحرم طاعته ، وتعاف مجالسته ؛ لأن صحبته غرر ، وطاعته ضرر ، ومجالسته خطر .

٥ ـ المنَّاع للخير ، هو البخيل المسك ، يمنع أحوج ما يكون إليه صاحبه ومثل هذا لا خير فى صحبته وطاعته .

٦ ـ المعتدى ، هو المتجاوز الحد فى الظلم ، لا يؤمن شره ، ولا يؤمّل خيره فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنبذ طاعته سداً للباب .

٧ ـ الأثيم ، هو كثير الإثم والمعصية ، لم يبال بالمجاهرة بمعصية ربه ، ولم يخش من جلاله وعظمته ، فلا يبالى أن يجاهر صاحبه بأذيته ، وينابذه بعداوته .

ومثل هذا يجب نبذ طاعته ، وتجنب مخاطبته .

٢٠ — الاتحاد

قال الله تعالى « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (آل عمران).

تشير هذه الآية الكريمة إلى فضل الاتحاد ، وعظيم الألفة بين العباد ، وما تفضل به الله عليهم من عظيم المنّة ، وجزيل النعمة ، حيث جمع قلوبهم بعد الشتات ، ووحّد كلمتهم بعد الافتراق ، ومنحهم التحابّ والتوادّ ، بعد التباغض والتحاسد ، وصاروا إخواناً أحباء ، بعد أن كانوا خصوماً ألداء ، وذكرهم بجليل آلائه ، وجزيل نعمائه ، ليشكروه على ما تفضل به وتكرم ، وأحسن وأنعم ، وقد أمرهم الله جلّ شأنه بالاعتصام بحبله ، والتمسك بدينه ، والعمل بما فيه ، والنزول عند حكمه ، والاجتماع على نصرته، والذب عن حوزته والتفانى فى إعلاء كلمته .

ونهاهم عن التفرق فيه وعدم الائتلاف ، والسعى فيما يجلب الشقاق والاختلاف .

فقال تعالى : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا » أى تمسكوا بدينه ، واعملوا بما فيه مجتمعين على ذلك ، ولا تفرقوا عن الحق الذى أمرتم بالاعتصام به .

ثم أخذ جلّ شأنه يذكرهم نعمه عليهم ، بأنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، لا يهنأ لهم عيش ، ولا تصفو لهم حياة ، فألف بين قلوبهم ، فصاروا بعد هذه الأفعال الشنيعة ، والأعمال القبيحة ، إخواناً أحباء ، مجتمعين مؤتلفين ، متحابين يساعد بعضهم بعضاً ، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، فقال : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

وهذا الخطاب كان موجهاً للأنصار رضوان الله عليهم ، وذلك أنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وضغائن وأحقاد ، طال بسببها قتالهم ، ولم يكن بينهم وبين الوقوع فى النار ، إلا أن يموتوا كفاراً ، فلما جاء الإسلام ، ودخل فيه من دخل ، صاروا إخواناً متحابين متواصلين متعاونين ، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وذلك من أكبر النعم ، وأعظم المنن ، ولذا أمرهم جل ذكره بتذكرها ، ليكون ذلك داعياً لشكره على إحسانه إليهم .

وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

١١ — حسن المعاملة

قال الله تعالى : «وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (فصلت) .

ترشد هاتان الآيتان إلى بيان ما أمر الله به عباده المؤمنين ، من حسن المعاملة مع صنوف الخلق ، الصغير منهم والكبير ، فإن أغضبهم أحد صبروا ، وإن جهل عليهم حلموا ، وإن أساء إليهم عفوا عنه ، وإن أذنب فى حقهم ذنباً غفروه ، وأغضوا عما حصل منه من الهفوات ، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات .

فإن فعلوا ذلك صار العدوّ لهم صديقاً ، والبعيد عنهم قريباً ، والمبغض لهم حبيباً ، وهذا ما أفاده الله بقوله : « وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

أى إن الحسنة والسيئة، متفاوتتان فى ذاتهما، فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها ، وادفع بها السيئة التى تعرض عليك من بعض أعدائك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة ؛ فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن ، أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يشتمك فتعطيه جائزة ، فإنك إن فعلت ذلك ، وأحسنت إليه من حيث أساء إليك ، قاده إحسانك إلى

مصافاتك ومحبتك ، والحنو عليك حتى يصير كأنه ولى حميم ، أى قريب إليك من الشفقة عليك.

ثم إنه جلّ شأنه ، بعد أن أوصى عباده المؤمنين بحسن المعاملة ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وبيَّن الثمرة المترتبة على ذلك ، أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية ، وحافظ على هذه المزية ، فقال : « وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

أى ، وما يقبل هـــذه الوصية ، ولا يعمل بها ، إلا من اتصف بالصبر ، وثبات القلب ، وقوة العزيمة ، لأنها من الأمور الشاقة على النفس ، التى لا يحتملها إلا من كانت هذه حالته ، وإلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة.

١٢ — التعاون

قال الله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » (المائدة) .

ترشد هذه الآية الكريمة إلى أهم الأمور ، وأجدرها بالعناية ، وأحقها بالرعاية ، وهو التعاون على فعل الخيرات ، وهو البرّ ، وترك المنهيات ، وهو التقوى ؛ لما فى ذلك من الخير الكثير ، والأجر الكبير ، وما يترتب عليه من الفوائد والمنافع ، التى تعود على الناس بالخير والسعادة ، فبالتعاون على فعل

الخيرات يتبادلون المنافع ، ويقضي البعض للبعض ما لا يمكنه الحصول عليه ، وبالتعاون على ترك المنهيات ، يرضى الله عنهم ، فيمنحهم الخير ، ويكفيهم الضير ، شأن الراضي مع المرضي عنه ؛ فمن جمع التعـــاون بقسميه فقد كملت سعادته ، وطابت حياته ، وهَنُؤَتْ مَعيشته .

وبعد أن أمر الله جلّ شأنه بالتعاون على فعل الخير ، وترك الشر والضير ، نهى عن التعاون على الإثم ، وهو ما نهى الله عنه ، والعدوان ، وهو التعدى على الناس بما فيه ظلم ، فإن فى التعاون على ذلك مفاسد كثيرة ، ومنكرات فظيعة.

ثم توعد من خالف ذلك ، وتعاون على ظلم الناس ، وعدم مراعاة حرمتهم ، ولم يبال بما أمر الله به فتركه ، ولا بما نهى عنه ففعله ، بالعذاب الأليم ، والعقاب الشديد . فقال : « وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » .

١٣ — المشورة

قال الله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » وقال تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

أى ينبغى للإنسان ألّا يعمل عملًا ، ولا يبرم أمراً من الأمور الهامة ، إلا بعد أن يشاور من جرب الأمور وعرفها ، حتى لا يقع فى الخطر باستبداده .

ولذلك مدح الله المتشاورين فى الأمور ، وحثّ نبيه عليه الصلاة والسلام على أن يشاور أصحابه ، مع أنه أرق منهم فكراً ، وأكثر منهم علماً ، لنقتدى به فى أعمالنا ، فقد قيل : من استبد برأيه هلك .

١٤ — وصية لقمان لابنه

قال الله تعالى : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ » (لقمان)

تشتمل هذه الآيات الكريمة على أهم مكارم الأخلاق ، وأعظم صفات الكمال على الإطلاق ، ولا غرو فقد وصى بها لقمان ، أب حكيم ، فقد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة والإصابة فى الرأى والفكر ، ابناً هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه .

فأوصاه هذه الوصية الجامعة النافعة ، التى جاءت فى القرآن الكريم فيجب على كل إنسان أن يعمل بها ، فيؤدى الصلاة بخشوع ، ويأمر الناس بالمعروف ، أى بطاعة الله ورسوله والوالدين وأولى الأمر ، والتخلق بالأخلاق الكريمة ، وينهاهم عن عصيان الله تعالى ، وعن القتل ، والنهب ، والسلب ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتامى والإضرار بالناس وغير ذلك ، وأن يثبت عند حصول المصائب ، ولا يجزع ، ويسلم الأمر لله تعالى ، ولا يتكبر على الناس ، ولا يكون معجباً بنفسه ، ولا يتبختر فى المشى ؛ بل يجب عليه التواضع ، والتوسط فى السير ، فلا يسرع ولا يبطىء ، وأن يخفض من صوته ، فلا يرفعه فوق اللزوم .

فمن عمل بهذه الوصايا فقد حاز رضاء الله والناس ، وعاش فى راحة وإيناس

١٥ — العمل للآخرة والإحسان إلى الناس

قال الله تعالى : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلَاتَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ . وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ » (القصص)

ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن الإنسان عليه أن يشتغل بأمر الآخرة ، وما يوصل إليهـا ، ولاينسى نصيبه من الدنيا ، بل يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، فيؤدى ما عليه من الحقوق نحو جسمه ، فيدبر له الأكل بالسعى وراء أسبابه والشرب والملبس والمركب إلى غير ذلك من ضروريات الجسم ولوازمه ، التى لاقوام له إلا بها ، وذلك إنما يكون بالسعى والعمل فيما به الوصول إلى هذه الأشياء . كما قال عليه الصلاة والسلام:

(اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) .

وهذا الذى أفاده الله تعالى بقوله : « وَٱبْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ ٱللَّهُ الدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا » .

وكما أمره الله أولًا بالإحسان بالمال ، أمره ثانياً بالإحسان مطلقاً ، ويدخل فيه الإعانة بالمال ، والجاه وطلاقة الوجه ، وحسن اللقاء ، مع صنوف الخلق .

كما قال الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وكما قال آخر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

والمقصود من قوله تعالى : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى أحسن إلى خلقه بصنوف الخير والبر ، ولا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله « إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

١٦ — التقوى والحث عليها وما فيها من الفضائل

قال الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً » (الأحزاب) .

المقصود من هاتين الآيتين حثّ المؤمنين على تقوى الله تعالى وأن يعبدوه عبادة من كأنه بسمعه ويراه ، وأن يقولوا قولًا سديداً ، أى مستقيماً ، لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إن فعلوا ذلك أثابهم عليه أجراً عظيماً ، ومنحهم من كرمه فضلًا جزيلا ، وخيراً عميا .

وذلك بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منه .

وبعد أن حثّ الله جل شأنه على التقوى ــ وهى امتثال ما أمر الله به ، واجتناب مانهى عنه ، وبيّن ما يترتب عليها من التوفيق لصالح الأعمال، وتكفير الذنوب ــ قال :

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً » أى ظفر بالخير ظفراً عظيماً سواء فى الدنيا أم فى الآخرة .

وقال الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (المائدة)

ترشد هذه الآية الكريمة إلى الوجوه المستجمعة لأنواع الآداب مع الله تعالى وهى ثلاثة :

الأول ــ اجتناب محارمه تعالى ، وترك مناهيه ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ » .

الثانى ــ طلب التقرب إلى الله بجميع أنواع البرّ والخير ، والطاعات والعبادات ، وترك المعاصى وهذا هو المراد من قوله تعالى : « وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » .

الثالث ــ مجاهدة النفس فى سبيله تعالى ، وهو شرائعه التى شرعها وسنها لعباده .

وذلك بأن يَرُوضها على فعل الخيرات، وعمل الطاعات، ويكبح زمامها عن الشهوات والمنهيات.

وقد وعد جلَّ شأنه من تأدب بهذه الآداب ، فاجتنب محارمه ، وترك مناهيه ، وطلب التقرب إليه بالطاعات والعبادات ، وجاهد نفسه ، بكفها عن كل ما تشتهيه ، ومنعها عما تبتغيه ، بالفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة وذلك بقوله : « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

١٧ — صلة الرحم والحث عليها

قال الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » (النساء) .

تشتمل هذه الآية الكريمة على أمرين : الأول ـ ما أرشد الله إليه خلقه من الأمر بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة وهى (آدم عليه السلام) وخلق منها زوجها وهى (حواء عليها السلام) وبثَّ منهما رجالًا كثيراً ونساء ونشرهم فى أقطار العالم ، على اختلاف أصنافهم ، وأوصافهم ، وألوانهم ولغاتهم .

ولا شك أن خلقه تعالى بهذه الكيفية من أقوى الدواعى إلى الاتقاء من موجبات نقمته ، ومن أتم الزواجر عن كفران نعمته .

الأمر الثانى ـ الحثّ على صلة الرحم وبرِّها ، وعدم قطعها ، وهذا الذى أفاده الله تعالى بقوله :

«وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » أى واتقوا الله الذى يسأل بعضكم بعضاً به ، وذلك يكون بطاعتكم إياه ، واتقوا قطع مودة الأرحام ، فإن قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها باب لكل خير ، فتزيد فى العمر ، وتبارك فى الرزق ، ولذا وصل جل شأنه تقوى الرحم بتقواه ، وما أحسن ما ذكر الله من دواعى الحنو والعطف والشفقة والرحمة بالأقارب واستمالة القلوب إليهم ! حتى يصلوهم ولا يقطعوهم ، وحيث ذكر جل شأنه أن أصل الخلق من أب واحد ، وأم واحدة ، فإن فى ذلك من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة حقوق الإخوة ما لا يخفى .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » أى مطلعاً وعليماً ، فيعلم من امتثل أمره بتقواه وصلة الرحم ، ومن لم يمتثل فيجازى كلًّا منهما بما يستحق .

١٨ — الاستقامة

قال الله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا . وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ »
(فصلت)

ترشد هاتان الآيتان الكريمتان إلى أعظم الأمور قدراً ، وأجلها فخراً وذكراً ، وأعظمها مثوبةً لديه تعالى وأجراً ، ألا وهو الاستقامة على طاعة الله تعالى ، والوقوف عند حدوده ، والارتباط بحفظ مواثيقه وعهوده ، والائتمار بأوامره ، والاجتناب لنواهيه ومحارمه ، حتى لا يراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ؛ فإن الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، قد منح صاحبها من الخير أكثره ، ومن الأجر والثواب أعظمه وأكبره فنزل عليه الملائكة فى حال حياته عند حلول الملمات به وتراكم الأهوال عليه بما يشرح صدره ، ويدفع عنه الخوف والحزن ، وعند الموت تقول له : لا تخف مما قدمت عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزن على ماخلفت فى الحياة الدنيا من ولد وأهل ومال فإنا نخلفك فيه ؛ وفى القبر تؤمنه مما فيه من الأهوال ، وتؤنسه فيه من الوحشة ، وتؤمنه حين يبعث مما يشاهده من الهول الجسيم ، والخطب العظيم ، الذى تشيب له

الولدان ، ويفر المرء فيه من الأصحاب والخلان و « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى » ، فتؤمنه الملائكة من هول ذلك اليوم العظيم ، وتبشره بالجنة التى وعد بها على ألسن الرسل الكرام ، وفيها من جميع ما تختاره النفوس وتشتهيه ، وتقر به العيون وترتضيه ، ومهما طلب من أى شىء فيها وجده حاضراً بين يديه .

كل ذلك يفعله الله تعالى ضيافةً وعطاءً وإنعاماً منه على عبده جزاء استقامته، وملازمة طاعته وعبادته . فما أجزل هـذا الخير ؛ وما أحسن ما يوصل إليه : وما أفضل هذه الخلة ! التى بها كمال المروءة وتمام الإيمان ، وتكسب صاحبها أجل المزايا ، وتجعله محمود السيرة فى الدنيا والآخرة .

وقال الله تعالى فى بيان أن الاستقامة تجلب الخير وتوسع الرزق : « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » (الجن).

ترشد هذه الآية الكريمة إلى بيان ما أعده الله للمتقين ومنحهم إياه من واسع فضله ، وجزيل عطائه ، من الخير الجامع ، والرزق الواسع ، جزاء استقامتهم على طريقة الإسلام ، وطاعتهم لله تعالى ، وإخلاصهم له فى العبادة . وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : « وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا » أى كثيراً ، وهو كناية عن توسعة الرزق لهم . وقوله جل شأنه : « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » معناه نختبرهم ، حتى نعلم كيف شكرهم على تلك النعم ؟

فما أحسن الاستقامة ! وأجلبها للخير ، وأدرّها للرزق ، وما أحسن من يتصف بها ! وأجله فى العيون ، وأعظمه فى الأنظار !

١٩ — القناعة فى الأكل والشرب

قال الله تعالى : «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (الأعراف)

ترشد هذه الآية الكريمة إلى ماعلمنا الله إياه من الطب ، وأرشدنا إليه من الحكمة ، وهدانا إليه من القناعة مما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا ، وتطيب به معيشتنا ، وتهنأ به حياتنا ، من عدم الإفراط فى الأكل والشرب ، والإسراف فيهما ؛ لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة ، وتطفئ نارها ، وتضعف الجسم ، وتكثر الأرياح فى البطن ، وتصفر اللون ، وتضيق النفس ، وبذلك يضعف الفكر ، ويخمد الذهن ، وينحط الإدراك ، وإذا حجب القلب عن الإدراك ومنع الذهن عن الحركة فى المعقولات ، خسر صاحبه باباً كبيراً من العبادات ، لأن غاية المقصود من العبادات ، إنما هو الفكر الموصل إلى المعرفة ، والاستبصار بحقائق الحق ، وكثرة الأكل مانعة منه . ولهذا قال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

ولكثرة الأكل غير ذلك من المضار ، منها : أنها تهيج الشهوات التى

هى منشأ جميع المعاصى ، فلا يكاد الإنسان يملك نفسه ، ويكبح زمامها ، ويقودها إلى ما فيه صلاحها .

فلهذه المضار ، نهى الشارع الحكيم عن الإفراط فى الأكل والشرب والإسراف فيهما .

وقد بينت السنة الشريفة حد السرف المنهى عنه ، فقد قال رسول الله ﷺ .

(إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت) كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استعماله منهما فقد قال ﷺ :

(ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلا لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه) .

هذا ، وبعد أن نهى جل شأنه عن الإسراف فى الأكل والشرب أخذ يتوعد ، ويهدد من خالف أمر الله ، فأسرف فيهما ، ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله ، فقال : « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » أى يبغضهم ، وناهيك بغضب الله تعالى ، وعدم رضاه ، فإنه داعية الهلاك وسبب كل المصائب ، وأى عاقل يجرؤ على أن يغضب الله تعالى ، فى مقابلة مرضاة نفسه ، باتباعها فى شهوة ، هى سبب هلاكه ، وداعية لأسقامه آلامه ؟

٢٠ ـ المسارعة إلى فعل الخيرات

قال الله سبحانه وتعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ » (آل عمران)

ترشد هذه الآيات الكريمة إلى أن الله سبحانه وتعالى أعدّ الجنة للمتقين.

ثم بين أوصاف المتقين ، فذكر بذلهم الإحسان فى حالتى العسر واليسر ، والشدة والرخاء ؛ فإن من الناس من يبذل الإحسان فى حالة اليسر والرخاء ولا يبذله فى حالة العسر والشدة ؛ ثم ذكر كف أذاهم للناس ، بحبس الغيظ بالكظم ، وحبس الانتقام بالعفو ، ثم بيّن أنه يحب كل محسن لعباده ، فهذا حالهم مع خلق الله .

أما حالهم معه سبحانه وتعالى فى ذنوبهم ، فبيّن أنها إذا صدرت منهم فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ، قابلوها بذكر الله ، والتوبة والاستغفار ، وترك الإصرار عليها ، ثم وعدهم بحسن الثواب ، والمغفرة ، والخلود فى الجنة .

ونعم هذا الحال الذى هو جزاء العاملين على ماعملوه من التقوىٰ والإحسان ولقد أحسن من قال :

ليس فى كل ساعة وأوان　　تتهيا صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها　　حذراً من تعذر الإمكان
واغتنمها إذا قدر عليها　　حذر من تغير الأزمان
أحسن الناس من إذا أحسن الدهـر تلقى الإحسان بالإحسان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم　　فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

القسم الثانى
حكايات وأمثال تطبيقية
على موضوعات الآيات السابقة

١ — الاقتصاد

اقتصاد سيدنا عمر وزهده

يحكى : أن سيدنا عمر رضى الله عنه ، رأى بعض الناس الصالحين ، فقال له: هل رأيت منى شيئاً تكرهه ولا تحبه لى ؟

فقال له : نعم ، سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين ، وأن لك قميصين أحدهما لليل ، والآخر للنهار .

فقال : غير هذين شىء ؟

فقال : لا .

قال : والله إن هذين لا يكونان أبداً .

فعدل عن ذلك سيدنا عمر رضى الله عنه ؛ لأنه علم أن ذلك إسراف وتبذير ، وهو لا يريد إلا الشىء الضرورى ، وذلك ليوفر الأشياء للمسلمين ، ويحافظ عليها .

وقد فعل سيدنا عمر ذلك لحبه راحة المسلمين ، ولزهده فى الدنيا .

يحكى : أن قوماً جاءوا إلى قيس بن عبادة ـ وهو أحد الصحابة رضى الله عنهم ليسألوه دية لزمتهم ، فوجـــدوه فى بستان له ، يجمع ما يسقط من الثمار ، فيعزل الجيـــد عن الردىء ، فلما انتهى من شأنه ، سألوه حاجتهم ، فأعطاهم ما طلبوا .

فقالوا له : إن عطاءك هذا منافٍ لما تفعله من جمعك ما يسقط من الثمار .

فقال لهم : بما رأيتم من فعلى تمكنت من قضاء حاجتكم .

فانظروا كيف استعان على السخاء بالاقتصاد !

يحكى : عن طلحة بن عبيد الله ، وهو من كبار الصحابة رضى الله عنهم أن رجلًا جاء إليه ليسأله مالًا لزمه ، فرآه يرفع خف بعير له بيده ، فسأله ، فأعطاه ما طلب ، فقال له : أردت أن أنصرف حين رأيتك ترفع خف البعير ، فقال له : إننا لا نضيع الصغير ، ولا يتعاظم علينا الكبير .

اقتصاد المنصور

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات ، حتى امتلأت بالأموال خزائنه ، ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدى حكمه هادئ البال ، ينفق عن سعة ، ولا يخشى نفاداً ، ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف ، وإنما كانت عطاياه إلى القلة أميل ، وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف .

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون ، فكان أول من سنّ زيادة الأرزاق الفضل بن سهل .

وعلى الجملة ، فلم يقم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته ، وعلو همته وشدته على المريب ، واهتمامه بأمر العامة ، وجده فى بلاطه ، وكان فوق ذلك كله فصيحاً ، يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة .

وكانت القوة الإسلامية فى يده ، وطوع أمره ، إلّا أنها لم تكن عربية خالصة ، كما كان الحال فى الدولة الأموية ؛ وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة

تاريخ الأمم الإسلامية
للمرحوم الخضرى بك

حسن نتيجة الاقتصاد
وسوء عاقبة التبذير والإسراف

حكى : عن محمد بن حمزة الدروى ، أنه كان مسرفاً ، وقد أفنى جميع ما تركه إليه والده من مال وعقار ، حتى ضاقت به الحال ، ووقع فى ذل السؤال ؛ فلما توفى ابن عمه ، يحيى بن حمزة ، ولم يكن له وارث سواه ، ترك مائة دينار ، فأخذها محمد ، وشكر الله على ما منّ به عليه ، واتّجر فيها وصار يقتصد من دخله كل يوم ، مازاد عن لوازمه ، إلى أن صار أغنى أهل عصره وحصل على العز والإسعاد ، وحسن الذكر بين العباد ، بفضل الاقتصاد .

بالاقتصاد ينال المرء غاية الإسعاد

حكى أن شاباً ورث عن أبيه خمسين فداناً فى أرض مخصبة ؛ ولكن لم يرض لنفسه أن يقف موقف الفلاح المجدّ لمباشرة عمله بنفسه ، وتدبير شؤونه بقصده ؛ بل نزح عن قريته الصغيرة واندمج فى حياة المدن المملوءة شروراً ومفاسد وتكلفاً وإسرافاً وتبذيراً ، وكان قد وكل بأرضه رجلًا من الفلاحين المجتهدين المقتصدين ، فلم تمض عشر سنين حتى باع الشاب نصف الأرض للوكيل ، لأن حياة المدن ، وما فيها من أنواع الترف، وما تستدعيه من كثرة النفقات ، قد اضطرت هذا الشاب لكثرة المصاريف ، حتى استدان من بعض المصارف (البنوك) فلما ازداد الدين ، ونقصت ثمرة الأرض ، وعجز عن الوفاء ، ولم يجد بداً من بيع نصف أرضه لوكيله ، الذى بحسن تدبيره واقتصاده استطاع شراء الأرض ، وأصبح هو المالك لها ، وصار سيداً محترماً فى بلده .

فانظروا كيف أن الشاب المسرف فقد ثروته ، وساءت حالته ، وأضاع فى سنة ما ادخره أبوه فى سنوات ، وهدم ما بناه !

أما وكيله الفلاح فقد نال بالاقتصاد ، غاية الإسعاد .

قصيدة فى الاقتصاد والتدبير

للشيخ محمد أحمد حسونة مفتش مدارس مجالس مديرية جرجا

المال عون به تدنو لك النعم ... فكم به عزَّ جاه وارتقت أمم
فاحرص على المال واحذر أن تبدده ... فإنما أنت بالأموال محترم
إذا مرضت شفاك المال من سقم ... أو جعت غذاك والأحشاء تضطرم
وإن تغربت فالأموال مؤنسة ... وكل معقودة بالمال تنفصم
وكل معضلة ضاقت يفرجها ... جيش الدراهم والأهوال تلتطم
إن الدراهم أعوان لصاحبها ... على العدو إذا ما ظل يختصم
فاجمع حلالاً من الأموال تحظ به ... إن الحلال من المال يغتنم
ولا تقتر ولا تسرف وكن وسطاً ... تعش سعيداً كما قد نصت الحكم
ولا تبدده فى عرس وطوع هوى ... وفى الملاهى التى تدعو لما يَصِمُ
وفى المآتم لا تنهج على سنن ... يغشاك فى نهجه التعنيف والندم
وإن يكن يا بنى العيش ذا سعة ... وأنت فى صحة والدهر مبتسم
فاحفظ من المال جزءا تستعين به ... على الزمان إذا ما مسك السقم
واصرفه فى وجهه المشروع مجتهداً ... واعطف على فقراء منه قد حرموا
وصل به رحماً وادفع به سفهاً ... قد يكلم العرض كيما يسلم الشمم
اسعف أخاك إذا ما جاء مقترضاً ... ولا تراب فمن رابوا فقد أثموا

وعرضوا المال للآفات قاطبةً ... والله يهلك أموال الألى ظلموا
علم بنيك وأبناء الفقير به ... فالعلم ترقى به الأفراد والأمم
وابْنِ المدارس وانشر كل مندرس ... ليعلم النشء أضعاف الذى علموا
وابن المساجد ترفع شأن ملتنا ... لعل عمرك بالخيرات يختتم

« مرشد المنشئين »

فوائد الاقتصاد

اشترك سعيد وعلى فى تجارة ، بعد خروجهما من المدرسة ، ووضع كل منهما نصف رأس المال ، وتعاقدا على أن يكون العمل بينهما مناصفة والربح كذلك ، فاشتغلا عاماً بجد واجتهاد ، وعلى يتكلف خلاف طبعه من الإسراف .

ولما مضى ذلك العام ، ونمت التجارة ، وربحت ربحاً عظيماً ، طمحت نفس علىّ إلى الملاذ ، وتقاعد عن العمل ؛ ولما لم يكن عنده مال سوى مال التجارة طفق (ابتدأ) يأخذ مما يستحقه من الربح ، وينفقه طوراً على الملابس ، وحيناً على المأكولات والأشربة ، والركائب المطهمة .

كل ذلك وسعيد يلتهب غَيرةً وغيظاً ، وينهاه عن ذلك بقوله :

« إن الكثير مع التبذير قليل ، وإن القليل مع التدبير كثير، وإن حالك

(يا على) التى أنت عليها الآن ستكون عاقبتها وخيمة عليك ، وربما أدت إلى فصم عرا الشركة بيننا » .

فلم يعره علىّ أذناً مصغية ، ولم يزل كذلك إلى أن فقد ماله من الربح ، وأراد أن يأخذ من رأس ماله ، فمنعه سعيد، وانفصل منه، وفسخ عقد الشركة، واشتغل كل بنفسه .

فأما (سعيد) فضاعف جده ونشاطه ، مع اعتدال فى النفقة ، ولم يمض عليه عام إلا وقد أصبح ذا عقار وضياع .

وأما على ، فقد كان على عكسه ، ولم يمض هذا العام حتى باع ما بقى له من سلع التجارة ، لكثرة الدين الذى تراكم عليه بنصف قيمتها .

ولما لم يجد أمامه مصدر رزق يقوم بحاجته ، التجأ إلى (سعيد) ليقبله خادماً له ، فقبله بشروط كانت تأباها نفسه أيام كان شريكه ، ولكن الحاجة أم الضيم والهوان . فكلفه ذات يوم إحضار غذائه من المنزل ، وبينما هو راجع إلى سيده إذ صادفه فى طريقه أحد دائنيه ، وشدد عليه الخناق حتى وقعت الأوانى وتحطمت ، وبعد ما ناله من الإهانة والسب واللعن ، جمع الأوانى محطمةً فارغةً ، وقابل سعيداً ، فلما رآه عبس فى وجهه وأنبه ، ثم اقتطع قيمة الأوانى مما يستحق من أجرة الشهر ، وطرده من خدمته .

فانظر كيف كانت سوء عاقبة الإسراف والتبذير ، وحسن نتيجة الاقتصاد والتدبير !

« النصائح المدرسية »

النهي عن الإسراف

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، وقدم إليه قطعة من ذهب مثل الكرة ، وكان لا يملك غيرها .

فقال : يا نبي الله خذ هذه وأنفقها في سبيل الله .

فقال له النبي : أنت لا تملك غيرها ، فردها على عيالك إنما قال الله : «وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » أى (ما زاد عن القوت) .

فقال الرجل : لابد وأن تأخذها فى سبيل الله .

فأمسكها النبي ، ورماه بها ، وقال : يجود أحدكم بما يملك ويصبح عالة على الناس .

سوء عاقبة الإسراف

قال صدق لشريف : إن والدك قد توفى ، وخلف لك أموالا كثيرة ، فأتم دراستك الثانوية والعالية ، ثم زوّد نفسك بالعلم الصحيح ، واحرص على مالك ، واعلم أنه وسيلة للرغبة فيك ، وطريق إلى علو شأنك ، ونفوذ كلمتك ، وعون لك على أعدائك ، ولا تكن كبعض أولاد الأغنياء ، الذين خانوا آباءهم فى أموالهم التى كدوا وجدوا وسهروا الليالى الطوال فى الحصول عليها وتنميتها ، ثم سلموهم إياها ، فبددوها فى طرق غير شريفة كالميسر ،

والملاذ ، والشهوات حتى أصبحوا صفر الأيدى ، لا يمتلكون شروى نقير .

فقال له (شريف) : دعنى يا صدق من العلم وأهله ، والفضل وذويه ، لأنه يأكل الجسد ، ويميت القلب ، ولا حياة أهنأ من حياة تسوق إلى النفس ما تبتغيه من اللذات والشهوات ، فيكون المرء ذا صحة جيدة ، ناعم البال مسروراً وإنى كنت فى حياة أبى كسجين وسأمتع نفسى بكل ما تشتهيه ، لأن ما تركه لى لا تفنيه الأيام ، ولا مرّ الدهور والأعوام ، فتركه صدق وانصرف ، معتقداً أن من استهوته الشياطين ، وغلب عليه هوى النفس ، لا تفلح فيه النصيحة ، وإنما تفلح النصيحة فى المرء ، إذا صادفت هوًى فى الفؤاد ، وطفق شريف يبدد ماله يمنةً ويسرةً ، طوراً فى الحانات ، وأخرى فى الشهوات والملذات ، وقد التفت حوله بطانة سوء مدة من الزمن .

وفى ذات يوم اعترض صدق فى طريقه رجل رث الثياب ، طويل اللحية ، مغبر الوجه ، مادًّا يده ، يطلب صدقة ، فأمعن النظر فيه فإذا هو (شريف) صديقه القديم الذى لم ينتصح بنصيحته ، فقال له : ما أسرع زوال الأموال ، بالسرف والإهمال .

(النصائح المدرسية)

الفقير والمسرف

صادف أحد الفقراء غنياً مسرفاً ، فسأله أن يعطيه ديناراً ، فتعجب الغنى وقال للسائل : لمَ تطلب منى الكثير ، وأراك تكتفى من غيرى بالقليل ؟

فقال له : إنى أنتظر من سواك أن يعطينى مرةً أخرى ، ولكنى لا أنتظر منك مثل ذلك ؛ فإن يدك مبسوطة كل البسط ؛ ولو أحسنت إلىّ هذه المرة ربما لا تكون قادراً على أن تحسن إلىّ مرة أخرى .

لذلك طلبت منك أكثر من غيرك .

فاتعظ الغنى بكلامه ، وترك التبذير والإسراف ، وكافأ الفقير على حسن إرشاده ، وعاش بعيداً عن الفقر ، غنياً عن سؤال الناس .

لا سرف فى الخير

كان الحسن بن سهل وزير المأمون جم السخاء ، كثير العطاء ، فكتب إليه أعرابى يقول : ما هكذا يا حسن سبيل الإحسان ؟ أما علمت أنه لا خير فى السرف ؟ فأجابه الحسن قائلًا : قد علمت أنه لا خير فى السرف ، فهلا علمت أنت أنه لا سرف فى الخير ؟ أى أن ما ينفقه الإنسان فى سبيل الخير والإحسان لا يعد إسرافاً ؛ وإنما الإسراف هو إنفاق المال فى غير موضعه .

٢ — أدب الحديث

حكى : أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان جالساً بين أصحابه ، فجاء خنزير ووقف أمامهم ، فقال له سيدنا إبراهيم : اذهب بسلام .

فقال له أحد أصدقائه : لم لم تذكر اسمه يا نبي الله ؟

فقال عليه السلام أخاف أن ينطلق اسمه على لسانى ، فأخاطب به غيره من الآدميين فيبغضونى .

فانظروا كيف كان خليل الله يعلم أصحابه أدب الحديث ، ويحذرهم من التكلم بالألفاظ القبيحة التى تكرهها الناس ؟

كان رجل يتكلم عند النبي ﷺ فأكثر ، فقال له : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسنانى .

قال : أفما كان لك فى ذلك ما يرد كلامك ؟ ما أوتى رجل شراً من فضل فى لسانه .

قال مُعاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟

فقال: « ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكبُّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

وقال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

كان رجل يحضر مجلس القاضى أبى يوسف ، ويطيل السكوت ، فسأله : مالَك لا تتكلم ولا تسأل عن مسألة ؟

فقال : أخبرنى أيها القاضي ، متى يفطر الصائم ؟

فقال : إذا غابت الشمس .

فقال : فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟

فتبسم أبو يوسف وتمثل بقول الشاعر :

وفى الصمت زين للغبى وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

٣ — المحبة البنوية وإكرام الوالدين

كان لشاب يدعى سليمان ، أب شيخ كبير مقعد ، وكان هذا الشاب يسعى فى خدمة أبيه بالإخلاص والمحبة الزائدة ، ويعتنى به اعتناء تامًّا ، وكان يأتى إليه كلّ صباح ، ويجلسه قبل أن يذهب إلى محل شغله بحيث يراه وهو سائر إلى عمله ، وفى سيره يلتفت إلى جهة أبيه ليشير إليه بالسّلام ، ولذلك كان كل من يعرف هذا الشاب يحترمه ، ويوقره ؛ لأن الولد الصالح البارّ بأبويه محترم عند الجميع .

فاتفق ذات يوم ، أن هذا الشاب ، عند رجوعه من عمله وقت المساء واقترابه من المنزل ، رأى الجيران فى ضجة وصياح شديد ، يقولون : النار ! النار ! فلم ينصرف فكرُ سليمان لشىء سوى أبيه المقعد ، الذى تركه جالساً

فى مخدعه ، لا يستطيع النهوض والفرار من النار ، فثارت فى نفس سليمان المحبّة البنوية ، واشتعل قلبه شفقة على أبيه ، ووثب إلى المنزل الملتهب ناراً ، فحمل الشيخ على عاتقه ، وحاول الهرب والفرار بوالده من النار ، فأظلم الدخان عينيه ، وأعياه حمله ، ولكنه تجشم مشاق الحمل ، وآلام النار ، ووثب خارج المنزل ، فوضع والده فى محل آمن من الأخطار .

ولما رآه الناس يكابد هذه المشاق العظيمة ، أقبلوا عليهما ، فوجدوا سليمان المذكور فى حالة يرثى لها ، قد أحرقت النار شعر رأسه ، وأهداب عينيه ، والدم يسيل من ذراعيه ، وأثر اللهب فى إحدى عينيه تأثيراً أضرّ بها ، حتى لقد كاد يذهب ببصرها .

ومع هذا كله ، لم يتأثر هذا الشاب الهمام من تلك الآلام التى قاساها ؛ بل كانت عليه برداً وسلاماً ، وكان يقول لأبيه : يا أبت لا يضرنى ما لاقيته ، فلا تحزن ، ولا تتكدر مما ألم بى ، فإننا والحمد لله قد سلمنا من النار ، وإنى وإن كنت فقدت عيناً ، فبالعين الأخرى أشتغل ، وأتمتع بأن أراك على الدوام ، منشرح الصدر ، مستريح الخاطر ، راضياً عنى .

فدعا له والده دعوات صالحات ، تقبلها الله قبولاً حسناً ، فكان من أسعد الناس .

الابن الحقيق

مات تاجر ، وترك مالًا وافراً ، وابناً غائباً ، لم يعرف أحد صورته ؛ وبعد زمن ادّعى ثلاثة من الشبان ، أن كلا منهم ابن التاجر ، فأحضر القاضي صورة المتوفى وقال من وجّه بندقيته نحو هذه الصورة فأصابها فاز بالميراث .

فتهيأ الأول والثانى فى الرمية ، وأما الثالث فاضطرب وظهرت عليه علائم الحزن . وقال والدمع يسيل من عينيه : لا يمكنني أن أوجه أذى لوالدى ، ولو كان صورة على ورق ، وإن خسرت جميع ميراثى ، فعرف القاضي أنه ابنه الحقيق ، وقضى له بالميراث .

حب الأبناء

سار فارس بجواده ، فصادف غابة دخلها ، فوجد عرين أسد فترجل ودخل ، وكان الأسد غائباً ، وتاركاً شبليه ، فأخذهما الفارس وانصرف راكباً جواده .

فلما عاد الأسد ، ولم يجد شبليه ، زأر وخرج يبحث عنهما ، فرأى الفارس فأسرع نحوه ، فلما كاد أن يدنو منه ألقى الفارس أحد الشبلين ، رجاء أن يلهو به الأسد .

ولكن الأسد أخذه ووضعه فى مأمن ، ثم تبع الفارس ليأخذ شبله الثانى ، فلما رآه الفارس ، وأيقن بالشر ، رمى بالثانى ، ونجا بنفسه ، مردداً قول الشاعر :

« ونحمى حمى الأسد التى لشبولها   تجر من الأقران لحماً على لحم »

« ثمار الانشاء

حب الأم لولدها

خرجت امرأتان ومعهما صبيان ، فتعدى الذئب على صبى إحدها فاختصمتا فى الصبى الثانى إلى دواد عليه السلام ، فقصتا عليه القصة ، فحكم به للكبرى منهما ، فاختصمتا إلى سليمان عليه السلام .

فقال : ائتونى بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف .

فقالت الصغرى : أتشقه يارسول الله ؟

قال : نعم .

فقالت : لا تفعل ، فنصيبى فيه لها .

فقال : خذيه فهو ابنك ، وقضى به لها .

رحمة البنوة وحنان الأبوة

يحكى أن ابناً فرنسياً يقال له (يوسف برنار) كان هو وأبوه فى خدمة رجل من مشاهير التجار ، يجوبان الأقطار ، ويقتحمان الأخطار فى سبيل رواج تجارته .

واتفق أن الأب ركب ذات يوم متن البحر ، قاصداً القسطنطينية « اسلامبول » مع بضائع لمولاه ، ثم مضى على ذلك عدة من السنين ، لم يعلم أين رسا به المركب ، إلى أن بلغ الابن بعد مضىّ الزمن وإطالة البحث عن والده أنه قد وقع فى بلاد القرصان ، فباعوه من رجل من أغنياء الترك ، يقال له : « على بابا » ويسكن فى جهة « غلطه » فآلى على نفسه أن يفتدى أباه ، ولو بدّد فى سبيله ما تملكه يداه ، فجمع ماله من النقود ، وباع أحسن ما يخصه من العقارات والأمتعة ، ثم ركب سفينةً قاصداً (القسطنطينية) وجعل نفسه من العمال فيها لكيلا يدفع أجرة السفر .

ولم يزل المركب سائراً به ، حتى وصل إلى التركى فعرض عليه أن يفتدى أباه ، فأبى التركى إلا مالاً وفيراً ، لم يكن ما أتى به يبلغ نصفه ، فحار الابن فى أمره ، وظلّ هنيهة لا يدرى ماذا يفعل لفرط ما أصابه من الدهش من إباء مولى أبيه ؛ غير أنه لم يلبث أن قال له : إذا لم يكن من الرّق بدّ ، فاقبلنى أنا عبداً ، ولك منى شاب قوى نشيط ، بدل ذلك الشيخ الهرم ، الذى لا يعود ينفعك كبير منفعة ، فرضى المولى بالبدل ، وأمر بعبده فأحضر بين يديه .

فلما بصر بابنه ، عانقه معانقةً طويلةً ، وامتزجت دموعهما على خديهما امتزاجاً صور لمن حولهما « رحمة البنوة وحنان الأبوّة » .

ثم قال الابن : يا أبى ، أنا مقيم مقامك ، فى دار الرّق ، فدونك أنت هذه النقود ، التى أتيت بها لفدائك ، ولم تكف مولاك ، واذهب فأنت منذ اليوم طليق ، وأنا رقيق .

فتأبى الوالد على ولده ، ورفض قبول طلبه ، واستمر فى بكائه ، فكان لهما حينذاك ، منظر تشق له نياط القلوب ، فلم يتمالك التركى نفسه ، لأنه لم يكن رأى قبل ساعة من البرّ ما يقارب فعالهما ، فبكى هو أيضاً ورثى لحالهما وقال للولد :

أنعم بك من ابن كريم ، شريف النفس ، كبير المروءة ، عالى الهمة تالله إن بين جنبيك لنفساً أرفع وأجل من أن تنالها قيود العبودية ، فاذهب أنت وأبوك حرّين لوجه الله تعالى . على أنى لا أدعكما تذهبان صفرى اليدين بل أهب كلا منكما من المال ما يمكنه أن يفتح تجارةً له تغنيه عن أن يخدم الناس .

فانصرفا عنه ، وهما لفضله شاكرين ، وانطلقا إلى وطنهما سالمين غانمين .

(بحر الآداب)

إكرام الوالدين

حكى : أن (نابليون بونابرت) مرّ يوماً مع بعض قواده على امرأة عجوز قد أحنى الدهر ظهرها ، فترجل عن جواده ، ورفع قبعته عن رأسه ، والتفت إلى قواده وقال :

هل تعلمون لِمَ فعلت ذلك ؟ لأنى ما مررت أبداً على عجوز ، إلّا وأرفع قبعتى احتراماً لها ، لأنى أتخيل وقتئذ والدتى ، فهيا يا قوادى ترجلوا وارفعوا قبعاتكم إكراماً لها .

حبّ الأمهات

حكم على امرأة بالقتل، فسجنت لكى تموت جوعاً، وسمح السجان لابنتها أن تراها ، ولم يدعها تأتيها بشيء من الطّعام .

ولما رأى أنّ المرأة عاشت أياماً ولم تمت ، راقب حركات ابنتها ، فوجد أنها تجيء وترضع أمها من ثدييها ، فأخبر الملك بذلك فعفا عنها .

حب البنين

غضب معاوية مرة على ابنه (يزيد) فأرسل إلى الأحنف بن قيس فسأله عن رأيه في البنين.

فقال : ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودّهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلًا ، فيملوا حياتك ، ويحبوا وفاتك ، فقال : لله درك يا أحنف ، لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضباً على (يزيد) فسللته من قلبي .

شفقة الوالدين وخدمة الإنسانية

كان لأسرة فقيرة ، ولد وحيد ؛ أصابه مرض الخناق « الدفتريا » فكان يتألم ويتضجر ، ووالدته بجانب سريره تتألم لألمه ، وتبكي لمرضه ، ووالده أمامه يقاسمه آلامه ، ويشكو بثه وحزنه إلى الله ، داعياً له بالنجاة .

ويا له من منظر يفتت الأكباد ، ويثير الأحزان !

فلما أن شعرت جارة لهما بحالتهما ، جاءت لتشاطرهما الأسى والأسف ، وتسأل عن حالة المريض ، فرأت الولد المسكين في حالة محزنة ، يحنّ لها كلّ قلب سليم ، وأخذتها الشفقة ، فأشارت على الوالد بأن يتوجه لجمعية رعاية الأطفال ويلتمس منها حضور أحد الأطباء ، لمحاربة هذا الداء القتال ، فأذعن

لنصيحتها ، وعمل بإشارتها ، وذهب مسرعاً إلى تلك الجمعية ، وعرض أمر ولده عليها ، فأرسلت معه أحد أطبائها . فلما فحص حالة المريض ، وجد أنها خطرة تنذر بالموت ، فأظهر أسفه لوالديه ، وأخذ يلومهما على تأخرهما عن إسعافه ، وهما يعتذران له افقرهما ، ويظهران شدة قلقهما وحزنهما على ولدهما؛ فأشار عليهما بضرورة عمل عملية جراحية لهذا الطفل المسكين أملاً في نجاته، وكتب تذكرة لأحد إخوانه الأطباء الإخصائيين بالجراحة ، فأخذها الوالد الحزين وذهب تواً إلى مستشفى الطبيب الجراحي ، فوجده مشتغلاً بعملية جراحية ، فانتظره قليلاً حتى أتمها ، وكان لديه أحد خدام الأمراء يدعوه للتوجه لسيده ليعوده ، فبمجرد أن اطلع على تذكرة صديقه الطبيب ، فضل التوجه لإسعاف هذا الولد الفقير ، على زيارة ذاك الأمير ، واعتذر لخادمه ، ووعده بالذهاب إليه بعد إجراء هـذه العملية السريعة الضرورية ، وركب مركبة وبجانبه والد المريض .

فبعد أن نظر حالة الولد المسكين ، أخرج سلاحه فى الحال ، وباشر عمل العملية بمساعدة ذلك الطبيب الأول ، ولما أتم العمل أظهر لوالدى المريض ، اللذين كانا فى حالة الغيبوبة والذهول ، علامات البشر والانشراح ، وطيب خاطرهما ، بقوله لهما : « إن أملى وطيد إن شاء الله فى النجاح » .

ثم أخذ يباشر مريضه مدة أسبوع ، إلى أن منّ الله عليه بالشفاء ، فكان فرح الوالدين لا يوصف ، وسرور الطبيب لا يقدر ، فهنأهما بشفاء ولدهما ، وهنأ نفسه بنجاح عمله ودوائه .

فرأت الوالدة الشفيقة أن تجمع مالديها من الحلى والحلل ، وتقدمه لهذا الطبيب مكافأةً له على عمله ، فلما أن عرضتها عليه أبت نفسه الشريفة قبولها ، ورفضها شاكراً لها حسن صنيعها .

وكان فى عمله هذا أكبر درس للأطباء ، وأعظم عبرة للحكماء ، الذين لاهمّ لهم إلا جمع المال ، وتلهيهم مطامعهم عن خدمة الإنسانية .

وقد أراد الله أن يعوض على هذا الطبيب الشريف الكريم جميل صنعه ، وأن يقوم والد الطفل المريض برد الجميل فى هذا السبيل حيث أصيب الطبيب بتسمم فى إحدى ذراعيه أثناء إجراء عملية جراحية ، وكان لابد من علاجه بأخذ دم من جسم قوى سليم ، وتلقيحه به ، فأعلن ذلك فى إحدى الجرائد .

فلما اطلع والد الطفل على هذا الإعلان ، وكان صحيح البدن ، قوى البنية ، توجه فى الحال إلى منزل الطبيب المريض ، وقدم نفسه للأطباء الذين اجتمعوا عنده لهذا العمل ، فقابلوه قبولاً حسناً ، ووضعوه بجانب الطبيب المريض ، وعملت لهما العملية ، فكان دم الإخلاص والجميل ينتقل من جسم الوالد الشفيق ، المخلص الرفيق ، إلى جسم الطبيب ، خادم الإنسانية ، وصاحب المعروف ، فكان فى ذلك شفاؤه ، وردّ لجميله وتعويض لسابق إحسانه وما جزاء الإحسان إلّا الإحسان .

الولد العاق

كان أب يقول دائماً لولد له : إنك لاتفلح أبداً

فهاجر الولد من بلد أبيه ، واتفق أن المقادير ساعدته حتى صار والياً على بعض الولايات .

فأرسل أمراً يطلب به من حاكم البلد التى كان فيها والده أن يرسله إليه مقيداً بالأغلال .

ففعل الحاكم ، ولما وصل قال : انزعوا قيوده ، وأدخلوه الحمام ، وألبسوه أفخر الملابس ، ثم أحضروه إلىَّ ، ففعلوا ، ولما مثِّل بين يديه ، بكل تعظيم سأله ألم تعرفنى ؟

فقال : لا .

قال : أنا ولدك فلان ، الذى كنت تقول له : إنك لا تفلح أبداً ، فكيف ترى الآن ؟

فقال الوالد : لا أزال على رأيى من جهتك ؛ لأنك لو كنت أفلحت حقيقةً لما أتيت بى مقيداً بالأغلال ، ثم تركه ومضى إلى سبيله .

الولد العاق الذى قتل أباه

رأى والد فى شبرا أن سلوك ولده غير حسن ، وأن سيره معوجّ ، فحاول تقويمه ، ولكن عبثاً كان يريد ، فلم ير من وسيلة يتخلص بها منه سوى طرده من منزله ، وحرم عليه العودة إليه .

ولا شك أن هذا الوالد المسكين ، كان يرمى بذلك إلى أن ابنه سيرى نفسه وحيداً طريداً ، غير قادر على كسب معاشه ، فتضطره الأحوال إلى أن يبتعد عن طريق أهواء النفس الأمارة بالسوء ، فيعدل عن خطته المعوجّة ، ويصلح نفسه ، فيعود إلى والده تائباً ، مسترحماً راجيا أن يغفر له ما تقدم من ذنبه ، وأن يغضى عن سيرته الأولى ، التى كفر عنها بالاستقامة والصلاح .

ولا شك أن الأب فى هذه الحال ، كان يقبل هذا المكفر عن سيئاته بين أحضانه ، ويزيده عنايةً ومحبةً ، لأنه أصلح عضوا فاسداً فى أسرته ، وفى المجتمع ؛ بل لأنه خلق رجلا صالحاً ، وأمات رجلا فاسداً ، فتمسك به تمسك الرجل المخترع باختراعه ، ولكن ذلك الابن العاق ، لم يقوّم ما اعوج من خلقه ، ولم يصلح سير نفسه ، بل تحركت فيه الروح الشيطانية الوحشية ، وعدّ طرد أبيه له إهانةً كبرى ، وجناية لا تغتفر ، وأنها ماسة بشرفه ، الذى بذله رخيصا فى سبيل الضلال والمفاسد ، فعوّل على أن ينتقم لنفسه من والده .

يالها من جريمة فظيمة وإثم كبير ! تمذر على هذا الأحمق الذهاب إلى منزل أبيه لأنه كان قد غضب عليه ، نخاف إن قابله ينفذ فيه خطة انتقامه ، فلم ير من وسيلة لتحقيق غرضه الفظيع المستنكر ، إلّا أن يتربص لوالده ، حتى يحضر إلى المكان الذى تعوّد الجلوس فيه عند خروجه من المنزل لاستنشاق الهواء ، ومجالسة الأصدقاء فما وقع نظره عليه ، حتى طعنه خلسة بمدية طعنة قاتلة ، ألقته على الأرض صريعاً ، يتخبط فى دمه .

فيالها من جناية فظيمة وعمل منكر !

كان خليقاً بهذا الجانى الأثيم ، أن يسكن إلى نفسه قليلاً ، ويراجع ضميره ، فيعلم أن والده لما همّ بطرده ، كان يريد به خيراً ليصلح حاله ، ويعدّه رجلاً كاملاً فاضلاً يفخر به .

وكان حقاً عليه أن يدرك هذه الحقيقة وأن يصلح حاله ، حتى يصلح مآله ، ويكون سعيداً فى الدّارين ؛ ولكن النفس الأمارة بالسوء ، وقفت به عند حدّ الجريمة ، فأقدم عليها غير هياب ولا وجل ، أقدم بقلب ثابت ، ويد غير مرتجفة على قتل أبيه ، فأعدم أسرته عميدها ، وستعدمه هذه الأسرة أيضاً ، وهى التى كانت ترجوه لوقت الشدائد ، إذا ما انتقل ذلك الولد إلى العالم الآخر .

ولكن هذا ما أراد الله ، وهكذا ماقدر الله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

(المحروسة فى يوم الأحد ٣ يونيه سنة ١٩١٥)

جزاء الأولاد الذين يعقون والدهم

يحكى أن أحد التجار الأغنياء لما كبرت سنه ، وضعفت قوته ، تخلى عما لديه من مال لأولاده ، بعد أن تعهدوا له أن يقوموا بأموره كافة ؛ فوفوا له حيناً ؛ ثم طفقوا يهملونه شيئاً فشيئاً ، حتى قست قلوبهم عليه، وأصبحوا يطعمونه كرهاً ويلبسونه كرهاً .

فلما رأى ذلك من أولئك العاقين ، عض بنان الندم على مافعله ، واستمر يتجرع الغصص منهم ، إلى أن أتاه ذات يوم بعض أصحابه القدماء ، بدين عظيم كان قد يئس من الحصول عليه ، وقطع الرجاء منه فأحضر صندوقاً متيناً أودعه إياه .

فحينما رأى الأولاد أن أباهم ذو مال، أخذوا يحترمونه ، ويراعون خاطره ، كي يتخلى لهم عما بقي لديه ؛ لكنه قد اتعظ بما جرى له من قبل، فلم يعطهم شيئاً.

ثم عند وفاته ، أسرعوا إلى الصندوق وفتحوه ، بقصد أن يغنموا ما فيه ، فإذا هو مملوء حجارة ، فوقها ورقة مكتوب فيها :

« إن الله قادر على أن يحوّل الذهب حجارةً للبنين الذين يعقون والدهم »

وذلك أن الأب ، لما رأى سوء فعلهم ، وتيقن عقوقهم ، تصدق سراً بذلك المال على ملجأ لتربية اليتامى، ومعالجة الفقراء، وملأ الصندوق حجارةً ، كتب الورقة ووضعها ، توبيخاً لأولاده اللئام العاقين .

٤ — أمثلة فى إطاعة أولى الأمر

مثال الطاعة

حكى : أن (أبا عبيدة بن الجراح) المشهور فضله فى الإسلام، حينما أمره رسول الله ﷺ بالجهاد فى غزوة بدر خرج طائعاً ، فوجد أباه فى المحاربين نقتله ، وأتى برأسه إلى رسول الله ﷺ ، وقال له : هذا رأس أبى ، قد قطعته فى طاعة الله وطاعتك .

مثال آخر

لما آلت الخلافة لسيدنا عمر رضى الله عنه أمر بعزل (خالدبن الوليد)وهو من ... ادالجيوش الإسلامية التى كانت مشتغلة يومئذ بالفتوحات الشامية لأسباب اقتضت ذلك .

فتقبل خالد أمر عزله بالانقياد (بالإذعان) وحارب جنديا كعامة الجند حتى تم فتح الشام .

ففرح عمر بنصر الله ، ورضى عن خالد ، وأعاده إلى القيادة ثانياً. فانظر كيف قويت فضيلة الطاعة والامتثال فى نفس خالد حتى إنه لم ير فى عزله إلا حادثاً مألوفاً ، لم يثنه عن واجب الجهاد ، ولا منعه عن إعلاء كلمة الحق .

عمر بن الخطاب والبنت المطيعة

كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ المدينة ، فمشى حتى أعيا ، فاتكأ إلى جدار ، فإذا امرأة تقول لابنة لها صغيرة : قومى إلى ذلك اللبن فامزجيه بالماء .

فقالت البنت : يا أمّاه أوَ ما علمت ما كان من عزم أمير المؤمنين ؟

قالت المرأة : وما كان من عزمه ؟

قالت البنت ؛ إنه أمر منادياً فنادى ، ألّا يشاب اللبن بالماء .

فقالت المرأة : امزجيه ، فإنك بموضع لا يراك عمر ، ولا منادى عمر .

فقالت الصبية : والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا .

وقد قال الله تعالى : « أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

فلما سمعها عمر بن الخطاب ، أثنى على البنت بقدر أسفه على خطأ أمها .

إطاعة أولى الأمر واجبة

الخليفة ورئيس الشُرط

قال عبد الله بن مالك : كنت أتولى الشُرط للخليفة المهدى ، وكان يبعث إلىَّ فى ندماء ولده الهادى أن أضربهم وأحبسهم صيانة للهادى عنهم ، فيبعث الهادى يسألنى الرفق بهم ، والتخفيف فى أمرهم ، فلا ألتفت إلى ذلك، وأمضى لما يأمر به المهدى ؛ فلما ولى الهادى الخلافة ، أيقنت بالتلف، فبعث إلى يوماً ، فحضرت ودخلت عليه ، متكفناً ، متحنطاً ، وإذا هو جالس على كرسى ، والنطع والسيف بين يديه ، فسلمت عليه ، فقال : لا سلم الله عليك ، أتذكر يوماً بعثت إليك فى أمر الحزامىّ لما أمر أمير المؤمنين بضربه فلم تجبنى ؟ وفى فلان وفلان وجعل يعدد ندماءه . فلم تلتفت إلى قولى .

قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لى أن أتكلم ؟

قال : نعم .

قلت أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، أيسرك أنك وليتنى ما ولانى أبوك وأمرتنى بأمر ، فبعث إلىَّ بعض ولدك بأمر يخالف أمرك ، فاتبعت أمره وعصيت أمرك ؟

قال : لا .

قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك .

فاستدنانى ، فقبّلت يده ، وأمر بخلع أفيضت علىّ ، وخرجت من عنده وصرت إلى منزلى مفكراً فى أمره وأمرى . وخفت أن يحدّث القوم بالأمر الذى عصيته فيه أن يزيلوه عن رأيه فىّ ، وإنى لجالس وبين يدىّ خبز وأنا أسخنه وأطعمه الصبية ، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وزُلزلت من شدة وقع حوافر الخيل وكثرة الضوضاء ، وإذا الباب قد فتح ، وإذا الخدم قد دخلوا وأمير المؤمنين فى وسطهم .

فلما رأيته وثبت من مجلسى ، فقال : خفت يا عبد الله أن يسبق إلى قلبك سوء الظن بأعدائك ، فيزيلون ما حسن من رأيى فيك ، فيقلقك ذلك ويوحشك ، فصرت إلى منزلك لأؤانسك ، وأعلمك أن الوحشة قد زالت فلا تستوحش

« العقد الفريد للملك السعيد »

لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق

كان أحمد بن طولون والى مصر متحلياً بالعدل مع تجبره وسفكه الدماء ، وكان يجلس للمظالم ، وينصف المظلوم من الظالم .

حكى : أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يشرب الخمر صباحاً ، فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره ، فدخل العباس إلى أبيه وأخبره بذلك ، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح .

فلما أحضر إليه قال : أنت الذى كسرت العود ؟

قال : نعم .

قال : أفعلمت لمن هو ؟

قال : نعم ، هو لابنك العباس .

قال : أما أكرمته لى ؟

فقال : اأكرمه لك بمعصية الله ، ولا طاعة لمخلوق مع معصية الخالق ؟
فأطرق أحمد عند ذلك ، ثم قال : كل منكر رأيته فغيّره ، وأنا من ورائك .

مثال آخر

حكى : أن أحد الملوك كان جالساً عنده رجل من الأتقياء الصالحين ، فقدم له الملك كأساً فيه خمر فلم يقبله .

فقال له : أتريد أن تعصيني وتغضبني يا شيخ ؟

فقال : وأنت أيها الأمير ، تريد أن أعصى الله وأغضبه ؟ لا يكون ذلك ولو أمر الأمير بقتلي .

أما علمت قول الله تعالى .

« إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » .

فسُرّ الأمير من جوابه ، وأمر له بجائزة عظيمة ، ومدحه على عفة نفسه وطهارة ذمته .

وقال : إنّ هذا الرجل لا يخاف فى الله لومة لائم .

نعم الشفيع الطاعة

بينما المتوكل فى مجلسه إذ جاءه واشٍ ، فأخبره بأن عليّا الهادى أحد أئمة الإمامية عنده سلاح وذخيرة ، وفى عزمه الخروج على المتوكل « وقلما يصدق واشٍ » فأرسل المتوكل إليه جماعة من الأتراك فهجموا عليه فى منزله ليلًا ، فوجدوه فى بيت مغلق ، وعليه مدرعة من شعر ، وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات القرآن فى الوعد والوعيد ، وليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل والحصى .

فحملوه على هيئته إلى المتوكل ، وكان المتوكل فى مجلس الشراب ، وفى يده الكاس . فلما رآه المتوكل أعظمه وأجلسه بجانبه ، وناوله الكأس ، فقال على الهادى : يا أمير المؤمنين : ما خامر لحمى ودمى قط فاعفنى منه ، فأعفاه وقال : إذاً أنشدنى شعراً .

فقال على : إنى لقليل الرواية بالشعر ؛ فقال المتوكل لابد من ذلك فأنشده :

« باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل »
« واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم ... فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا »
« ناداهم صارخ من بعد ماقبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل ؟ »
« أين الوجوه التى كانت محجّبةً ... من دونها تضرب الأستار والكللُ ؟ »

« فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم   تلك الوجوه عليها الدود يقتتل »
« قد طال ما أكلوا دهراً وماشربوا   فأصبحوا بعدطول الأكل قدأُكلوا »

فما تم إنشاده حتى بكى المتوكل بكاء كثيراً ، وأمر برفع الشراب وقال : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : نعم عليّ أربعة آلاف دينار فدفعها إليه ، وردّه إلى منزله مكرماً .

٥ — فى أدب التحية

حكى عن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب : أنه أتته جارية بباقة (صحبة) ورد ، فقال لها : أنت حرّة لوجه الله تعالى فقال له بعض من حضر : أتعتقها يا أمير المؤمنين لأجل تحية صغيرة ؟ فقال : ألم تقرأ قوله تعالى « وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » ولم أجد أحسن منها غير عتقها . وهذه غاية فى الكرم .

كان بعض الأمراء واقفاً ذات يوم فى الطريق يكلم تاجراً من وجهاء التجار ، فمرّ بهما عبد أسود ، وحيّا الأمير ، فردّ عليه التحية ، فتعجب التاجر وقال للأمير : أتحيّي عبداً أسود يشترى بالمال مع علو شأنك ، وعزة سلطانك ؟

فأجابه الأمير : كيف لا أحييه ؟ وهل يليق بى أن يكون هذا العبد أكبر منى أخلاقاً وأجمل أدباً .

فقال له التاجر : حقًّا يا مولاى إن هذا لمن أدب الملوك .

٦ — الاستئذان عند الزيارة

١ ـ قال رجل لرسول الله ﷺ : أأستأذن على أمى ؟ قال : نعم ، قال : إنى أخدمها ، أفأستأذن كلما دخلت عليها ؟

فقال : أتحب أن تراها عريانة ؟

قال : لا .

قال : فاستأذن .

٢ ـ عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : كنت جالساً فى مجلس من مجالس الأنصار ، فجاء أبو موسى الأشعرى فزعاً ، فقلنا له : ما أفزعك ؟ قال : أمرنى عمر أن آتيه ، فأتيته ، فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، فرجعت .

ثم أتيته ثانياً ، فوجدته ينتظرنى ، وقد أنكر علىّ فقال لى : ما منعك أن تأتينى ؟

فقلت له : قد جئت فاستأذنت ثلاثاً ، فلم يؤذن لى بالدخول ؛ وقد قال عليه عليه الصلاة والسلام : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » .

فقال لى عمر : لتأتينى على هذا الحديث بالبينة وإلّا عاقبتك ؟

فقال كبير المجلس : لا يقوم معك إلا أصغر القوم .

فقام أبو سعيد ، فشهد له عند عمر ، أن هذا الحديث قاله رسول الله ﷺ .

فقال عمر لأبي موسى : إني لم أتهمك ؛ ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ .

٣ ـ يقال : إن الحسن البصري رحمة الله عليه ، قصد زيارة رابعة العدوية رضي الله عنها في جماعة من أصحابه ، فلما وصلوا الباب قالوا : أتأذنين لنا في الدخول ؟

فقالت : تمهلوا ساعة .

وجعلت الكساء بينها وبينهم ستراً ، وأذنت لهم ، فدخلوا وسلموا عليها ، فأجابتهم من وراء الستر .

فقالوا : لِمَ جعلت بيننا وبينك ستراً ؟

فقالت : أمرت بذلك في قوله تعالى : « فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »

وواجب على الرجل أن لا ينظر إلى امرأة أجنبية بحال ، فإنه قبل أن يجازى به في الآخرة يجازى به في الدنيا .

٧ — حكايات وأمثال فى ذم السعاية

والغيبة والنميمة

السعاية من أفظع الجرائم

١ ـ دخل رجل على عبد الملك بن مروان ، وكان معه جلساؤه ، فقال له : أريد أن أسرّ إليك أمراً ، فقال لأصحابه : إذا شئتم فقوموا .

فلما تهيأ الرجل للكلام ، قال له عبد الملك : إياك أن تمدحنى ، فأنا أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى ، فإنه لا رأى لكذوب ، أو تسعى إلى بأحد ، فإن السعاية من أفظع الجرائم ، وإن شئت أقلتك!

قال : أقلنى .

٢ ـ وروى : أنه لما لقى أسقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة . قال : ومن قاتل الثلاثة ؟

قال : الرجل يأتى الإمام بالحديث الكذب ، فيقبله الإمام ، فيكون قد قتل نفسه ، وصاحبه ، وإمامه . فقال عمر : ما أراك أبعدت .

٣ ـ دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام وقال : إنى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته .

فقال : قل .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ؛ فلا تأمنهم على ماائتمنك الله عليه ، ولا تُصِخْ (لاتسمع) إليهم فيمااستحفظك الله إياه ، فإنهم لن يألوا فى الأمة حسناً ، وفى الأمنة تضييعاً ، وفى الأعراض قطعاً وانتهاكاً ، أَعْلَى قربهم البغى والنميمة ، وأجلُّ وسائلهم الغيبة والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموه ، وليسوا مسئولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

جزاء السعاية

رفع إنسان إلى يحي بن خالد بن برمك قصة يقول فيها : إنه مات رجل تاجر غريب ، وقد خلف جارية حسناء ، وولداً رضيعاً ، ومالاً كثيراً ، والوزير أحق بهذا . فكتب يحي بن خالد على رأس القصة :

أما الرجل فرحمه الله ، وأما الجارية فصانها الله ، وأما الطفل فرعاه الله ، وأما المال فثمره الله ، وأما الساعى إلينا بذلك فلعنه الله .

النَّمام و عُمر بن عبد العزيز

سعى رجل برجل عند عُمر بن عبد العزيز .

فقال له عمر : ياهذا ، إن شئت نظرنا فى أمرك ، فإن كنت كاذباً فأنت داخل تحت حكم هذه الآية « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » .

وإن كنت صادقاً فأنت داخل تحت حكم هذه الآية :

« هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ » .

فسكت الرجل ولم يبد جواباً .

النمام وكسرى

كان كسرى من الذكاء على أبعد غاية ، فنم إليه رجل بصديق له فكتب كسرى للنمام :

قد اخترنا نصحك ، وذممنا صاحبك لسوء اختياره الأصحاب نظيرك .

وما أصدق قول الشاعر :

احـــذر عدوك مرةً واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـــــق فكان أعلم بالمضرة

لعن الله النَّمام

دفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثّه فيها على أخذ مال شخص يتيم ، وكان مالًا كثيراً .

فكتب إليه على ظهرها .

النميمة قبيحة ، وإن كانت صحيحة ، والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعى لعنه الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سوء عاقبة النميمة

قيل : كان رجل له غلام فباعه ، وقال للمشترى : إنى أبرأ إليك من كل عيب به إلا عيباً واحداً .

قال : وما هو ؟

قال : النميمة .

قال : أنت برىء منه ، فإنى لا أقبل قوله .

قال : فما لبث إلا قليلًا حتى أتى السيد وقال له : إن امرأتك تريد أن تقتلك ، وتتزوج من غيرك .

قال : وما يدريك ؟

قال : قد عرفت ذلك ، فتناوم عليها ، فإنه سيظهر لك ما أقول .

ثم أتى إلى المرأة وقال : إن زوجك يريد أن يخلعك ويتزوج من غيرك ، فهل لك أن أرقيك ، فيرجع إليه حبك ؟

قالت : نعم ، ولك كذا وكذا .

قال : ائتيني بثلاث شعرات من تحت حنكه .

فلما دنت منه لتناول الشعر ، قام إليها بالسيف ، ولم يشك فيما قاله الغلام فقتلها ، وجاء إخوة المرأة فقتلوا الزوج .

فذهب كلاهما بسوء صنيع غيرهما ، وقبولهما نميمة الغلام .

نعوذ بالله من شر النميمة ، ونسأله الحماية منها ومن ذويها .

جزاء الواشي

وشى بعض الحساد بالوزير الكاتب (ابن مقلة) الذي انفرد في زمانه بجودة الخط وحسنه، وادعى أنه غدر بالملك في بعض الأمور . فأمر الملك بقطع يده ، فقطعت .

ولما لزم بيته ، انصرفت عنه الأصدقاء والمحبون ، ولم يأت أحد إلى وسط النهار ، ولكن تبين للملك أن الكلام عليه باطل ، فأمر بقتل الواشي ، ورد ابن مقلة إلى ما كان عليه .

فلما رأى إخوانه ، أن نعمته عادت إليه ، عادوا يهنئونه ، وأقبلوا إليه يعتذرون مما كان منهم ، فأنشد :

« تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا »
« عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا »

ومكث يكتب بيده اليسرى بقية عمره ، ولم يتغير خطه حتى مات رحمه الله .

لا تصغ لكلام الوشاة

كان يوسف وسيف الدين رفيقين قل أن يفترقا إلا فى وقت النوم فكانا يتعاونان فى المذاكرة ويترافقان فى النزهة ، ويتشاركان فى أفراحهما وأتراحهما ، وبالجملة كانا كالأخوين ، لا يتحاسدان ، ولا يتباغضان ، ولا يتدابران .

وكان كل منهما يميل إلى الآخر ، وينجذب إليه ، لتوافق مزاجيهما فساء ذلك تلميذاً حسوداً كان يحزن لرؤية النعمة على غيره ، ويفرح لما يقع به من المصائب ، وفكر أن يشى لأضعفهما إرادة بالآخر . فاختار يوسف وانفرد به مدة ، وذكر من سيئات سيف الدين مالا عهد له به من قبل ، وأخبره أنه كان يهجوه له ، فغضب يوسف وحدثته نفسه أن يقطع أخاه ، ولكن ما لبث أن هدأ والتفت إلى ذلك الواشى وقال له :

اسمع يا إبراهيم ، وشى واش بعبيد الله بن همام إلى زياد فقال له : إنه هجاك ، فقال : أأجمع بينك وبينه ؟ قال : نعم .

فبعث زياد إلى ابن همام ، فأتى به وأدخل الرجل بيتاً ، فقال زياد يابن همام، بلغنى أنك هجوتنى .

فقال : كلا ، أصلحك الله ، ما فعلت ولا أنت لذلك أهل .

فقال : إن هذا الرجل أخبرنى — وأخرج الرجل — فأطرق ابن همام هنيهةً ثم أقبل على الرجل فقال :

أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً   فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا   بمنزلة بين الخيانة والإثم

فأعجب زياد بجوابه ، وأقصى الواشى ، ولم يقبل منه .

فما رأيك فى أن أجمع بينك وبين سيف الدين ؟

فاعتذر له ، وما كاد ينتهى من الاعتذار ، حتى قدم سيف الدين ، فأخذ الواشى ينسل ، فمنعه يوسف عن الخروج ، وقصّ على سيف الدين ما كان من أمره ، فخجل الواشى ، وتغير لونه وسكت .

فقال سيف الدين : قال ﷺ :

« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً » .

وبعد ذلك شكر سيف الدين يوسف على سلوكه الذى كان سبباً فى قطع الوشاية بينهما .

(القراءة الرشيدة)

نزه سمعك عن سماع القبيح

سمع عليّ بن أبي طالب رجلًا يغتاب آخر عند ابنه الحسن فقال : يا بنى نزه سمعك عنه ، فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائه ، فأفرغه فى وعائك .

ولله در القائل :

لا تسرقن سمعاً بلا أذن من الـ ... متخاطبين ولا تـكن متجسساً
من رام معرفة الخفايا خفيةً ... عدّوه نذلًا خائناً متلبساً

الغيبة

دخلت امرأة على النبيّ ﷺ تستفتيه فى أمر ، فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها : (يا رسول الله ما أقصرها ؟)

فقال : (مهلًا إياك والغيبة) .

فقالت : (يا رسول الله ، إنما وصفتها بأمر هو فيها) .

قال : (أجل ، ولولا ذلك لـكان قولك بهتاناً) .

أى ، ولـكان العتب عليك أشد .

وما أحسن ما قاله الشاعر :

لقد صدق الباقرُ المرتضى ... سليل الإمام عليه السلام
بما جاء فى بعض أقواله ... قبيح الـكلام سلاح اللئام

المأمون والرجل المغتاب

اغتاب رجل رجلًا عند المأمون « أى عابه وذكره بما يكره » فقال له المأمون :

لقد استدللنا على كثرة عيوبك ، بما تذكر من عيوب الناس ؛ لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما هى فيه ، لا بقدر ما فيه منها .

ولقد صدق الشاعر :

المرء يعرف فى الأنام بفعله ... وخلائق الحرّ الكريم كأصله
لا تذكرنْ أحداً بذم ربما ... إن قلت شيئاً قيل فيك بمثله
هل أنت تجنى سكراً من حنظل؟ ... والشىء يرجع فى المذاق لأصله

وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى ... وذنبك مغفور وعرضك صيِّن
لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معائباً ... فدعها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن

الغيبة سبب القطيعة

قال بعضهم : دعيت ذات ليلة عند صديق لى لتناول طعام العشاء ، وقبل الميعاد بيوم ، تقابلت صدفةً فى أحد المتنزهات بإنسان أعرفه معرفةً قليلةً ، فأخذ يحادثنى فى شؤون شتى ، حتى وصل إلى ذكر صديقى صاحب الدعوة ، فجعل يعرض به ، ويتكلم فى حقه ، فاعترضته ووبخته بلطف ، فلم يتعظ ؛ بل زاد الطين بلة ، وسرد لى شيئاً يمس بشرف الرجل وكرامته ، وصار يحلف الأيمان على صحة ما يقول ، حتى أثر علىّ كثيراً وصدقته ، وكانت النتيجة : أنى عدلت عن إجابة الدعوة واعتذرت .

وبعد بضعة أيام ، قابلنى صاحب الدعوة، وعاتبنى كثيراً على تخلفى، فألزمتنى صراحتى، وطهارة ذمتى ، أن أخبره عن السبب ، وأفصحت له عن جلية الأمر؛ فاستاء جدًّا ، وأخذ به الدهش والاستغراب كل مأخذ ، من مقدرة الإنسان فى الغيبة والنميمة ، وعرفنى أن الرجل أخبره هو أيضاً أنى أنكرت عليه إنسانيته فى أثناء حديث جرى له معه ، وظهر لكل منا أنه مختلق علينا ، وواشٍ بنا ، والفضل فى ذلك للصراحة والعتاب ، الذى كشف لنا النقاب ، عن خبث ذلك الإنسان المغتاب العيّاب .

فلو اتخذنا الصراحة شعارنا، وانتشرت فضائلها بيننا ؛ لانقطع دابر الغيبة لأن الذى يساعد النمامين المغتابين ، على تمثيل رواياتهم المخزية المحزنة وترويج بضاعاتهم الخلابة الخداعة، هو ضعف الإرادة ، وعدم الصراحة .

حكايات وأمثال فضل كتمان السر

من كتم سره أحكم أمره

أسرَّ معاوية إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبى سفيان حديثاً .

قال عثمان : فجئت إلى أبى فقلت : إن أمير المؤمنين أسرَّ إلى حديثاً ، أفأحدثك به ؟

قال : لا ، إن من كتم حديثه كان الخيار فى يده ، ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكاً .

فقلت : أيدخل هذا بين الرجل وابنه ؟

فقال : لا ، ولكن أكره أن تذلل لسانك بإفشاء السرّ .

قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له .

فقال له معاوية : أعتقك أخى من رق الخطإ .

كاتم السرّ الأمين

حاصر الفرنسيس إحدى المدن فى سنة ١٨٠٧ وأحاطوا بها من كل جهة ؛ ولما كانوا غير عارفين بمدخل المدينة ، طلبوا من شيخ قرية صغيرة بجوارها أن يبوح لهم بالسرِّ ، وأن يدلهم على الأماكن والحدود ، ويهديهم سواء السبيل ، فأبى الشيخ ولم يجبهم إلى طلبهم ، فهددوه بالقتل فقال لهم : إنى أقسمت

لملكى يمين الطاعة والأمانة، فكيف أحنث فى يمينى ، وأخون ملكى وبلادى، أبوح لكم بالسر ، وأدلكم على مسالك المدينة للاستيلاء عليها ؟ هيا اقتلونى فأموت عن طيب خاطر، لأنه خير لى أن أموت أميناً، مقيماً على عهودى مع ملكى، من أن أعيش خائناً ، وإنى أفضل أن أفدى ملكى وشعبى وبلادى بحياتى .

فتعجب الأعداء من أمانة هذا الرجل ، وتركوه حيًّا بدون أن يمسوه بضرر ولا إهانة .

وهكذا تكون الأمانة ، والمحافظة على السرّ .

قصة الملك ووزيريه

يحكى أن ملكاً من ملوك العجم استشار وزيريه معاً فى مسائل سرية فقال أحدهما : لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحداً فى أسراره إلا خالياً ، فإنه أصون للسرّ ، وأحزم للرأى ، وأجدر بالسلامة ، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ؛ فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحد أوفق من إفشائه إلى اثنين ، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جملة؛ لأن الواحد رَهْنٌ بما أفشى إليه ، والثانى مطلق عليه ذلك الرهن ، والثالث زائد ؛ وإذا كان السر عند واحد أحرى ألّا يظهره رغبةً أو رهبةً ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة « اتسعت على الرجلين المعاريض لا ما يقال فراراً من الحقيقة .- فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم ، وإن عفا كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه ».

حكايات وأمثال فى ضرر إفشاء السرّ

من أفشى سرَّه أضاع عهده

لما ولّى عمر بن الخطاب (قدامة بن مظعون) بدل المغيرة أمره ألا يخبر أحداً ، فلم يكن له زاد ، فتوجهت امرأته إلى دار المغيرة فقالت :

أقرضونا زاد الراكب ، فإن أمير المؤمنين ولى زوجى الكوفة ، فأخبرت امرأة المغيرة زوجها ، فجاء إلى عمر واستأذن عليه وقال : يا أمير المؤمنين وليت (قدامة) بالكوفة وهو رجل قوى أمين ؟

فقال : ومن أخبرك ؟

قال : نساء المدينة يتحدثن به .

فقال : اذهب وخذ منه العهد .

إفشاء السرّ وصدق التحرى

ذكر فى كتاب الأذكياء لابن الجوزى ، أن ملكاً كانت أسراره تظهر كثيراً لعدوه فيبطل تدبيره على العدو ، فبلغ ذلك منه (أثر فيه) فشكا إلى أحد نصحائه ، وقال له : إن جماعة يطّلعون على أسرار لى لابد من إظهارها لهم ، ولست أدرى أيهم يظهرها ، وأكره أن أنال البرىء منهم بما يستحق الخائن .

فكتب النصيح أخباراً من أخبار المملكة ، وجعلها كذباً كلها وقال للملك : أخبر كل واحد منهم بخبر على حدة لايظهر عليه سائر أصحابه ؛ وأمر كل واحد بستر ما أسررت إليه ، واكتب على كل خبر اسم صاحبه .

فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أفشى إليهم ، وانكتمت أخبار الناصحين ، فعرف الملك من يفشى سره فحذره . (نزهة القارئ)

سرقة الحديث كسرقة الأشياء

كان أحدالأولاد يأتى من مدرسته كل يوم ، فيضيع وقته فى اللعب دون أن ينتبه إلى دروسه !

وكان أمام البيت المقيم فيه بيت آخر تسكنه أسرة معتبرة ، فكان عند فراغه من اللعب يقف وراء البيت يسمع حديثهم ، وعندما تراه أمه تنبهه قائلةً : ليس من اللائق أن تسترق حديث غيرك ، فإن سرقة الحديث كسرقة الأشياء ، فكان لا يصغى إلى نصيحة أمه ، وفى ذات يوم رأى باب الجيران مغلقاً ، فمد يده ليفتحه ، ويتمكن من سماع الحديث ، فارتد الباب على أصابعه ، فصرخ من الوجع ، فسمعت أمه ، فأسرعت إليه ، وقالت : لقد نلت جزاءك فلا تعد إلى ذلك مرةً ثانيةً .

النهى عن الحلف

روى أن عبد الله الحضرمى ادعى على امرئ القيس بن عابس بأنه أخذ منه قطعة من أرض ولم يكن عنده بينة ، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس .

فلما همّ بحلف اليمين ، قرأ رسول الله عليه الصلاة والسلام الآية : « وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » فارتدع امرؤ القيس عن اليمين وسلّم الأرض .

أراد رجل أن يتخذ صديقاً له ، فسأل عن أخلاقه ليقف على حقيقته ، قبل مصادقته فقيل له : إنه حلّاف ، فعدل عن اتخاذه صديقاً له قائلًا :

إن الأيمان الكثيرة دليل على ضعف فى النفس ، ودناءة فيها ، لأن صاحبها يظن أن ذلك يقويها ؛ ويرفع شأنها .

حكم وأمثال فى فضل الاتحاد

بالاتحاد تسعد البلاد ، وترتاح العباد

حكى أنه فى حكم « المتوكل على الله » أحد الخلفاء العباسيين كان الناس متحدين ، ويحب بعضهم بعضاً، ولا يعملون عملًا إلا بعد أن يتفقوا عليه جميعاً، سواء كان خيراً أم شرًّا .

فمن ذلك : أنهم لما رأوا (المتوكل) على الله غير منصف لبعضهم ، اتفقوا على قتله ، فدخلوا عليه ليلًا وقتلوه ، وبايعوا ابنه المنتصر بالخلافة ، فأسرّ فى نفسه أن يفتك بقاتلى أبيه ، وصار يفشى سرّه لبعض جلسائه فاتفقوا على المسارعة إلى هلاكه .

فقال لهم طبيبه : سأكفيكم شرّه ، فلم يلبث المنتصر إلّا أياماً حتى أحضر طبيبه ليفصده ، ففصده بموسى قد سمه فمات من ليلته ، وما ذاك إلّا بالألفة والاتحاد .

فبالاتحاد يكون العمران ، وتسعد البلاد ، وترتاح العباد .

القوة فى الاتحاد

حكى أنه كان لرجل سبعة أولاد وحقل يزرعون فيه بجد ونشاط وكد واجتهاد ، ولما حانت ساعة وفاته جمعهم حوله وقال لهم :

فليأت كل واحد بعصا ، ففعلوا .

فقال : اربطوا الجميع حزمةً واحدةً ، ففعلوا كما أمرهم .

فقال للأكبر : استجمع كل قوتك واكسر هذه الحزمة ، ففعل ولم يفلح ، والثانى كذلك حتى الأصغر فقال : إذا كان إخوتى الذين هم أكبر منى سناً ، وأوفر قوة ، لم يفلحوا فى كسرها ، فأنا من باب أولى .

فقال لهم الأب : فليأخذ كل عصاه ويكسرها .

ففعلوا ، وكان سهلاً عليهم كسرها .

فقال لهم : إن مثلكم يا أولادى كمثل هذه الحزمة ، فإن ارتبطتم مثلها رابطةً واحدةً ، وكانت قلوبكم على قلب رجل واحد ، تعسر على أعدائكم كسركم ، أى إيصال الأذى نحوكم ، ويحترمكم الناس ويهابونكم ، وتعيشون بذلك عيشةً راضيةً .

وإذا تفرقتم ودخل فيكم إبليس بفساده فبعثركم ، ضعفت قوتكم ، وهان على عدوكم كسركم ، أى سهل عليه إيذاؤكم ، فيسقط شأنكم من أعين الناس ، وتعيشون عيشة الذل والهوان ، وتذوقون طعم البلاء والخسران . فاتعظوا يا أولادى ، واستيقظوا لدينكم ودنياكم ، واستبقوا الخيرات لعلكم تفلحون

(أنفس الأعلاق)

وصية رجل لأولاده فى الاتحاد

إن رمت أسنى مثل   فاسمع وصايا رجل
لما وهت عزيمته   واقتربت منيته
أراد وعظ وُلْده   بحكمة من عنده
فقال : يا أولادى   يامنتهى مرادى
لقد أردت نصحكم   فأحضروا عصيكم
مربوطةً مع بعضها   توصلًا لقبضها
فاستمعوا كلامه   وأدركوا مرامه
وأقبلوا بالقُضُب   مربوطةً كالطلب
فقال هل يمكنكم   أن تكسروها كلكم؟
فأسرعوا فى الحال   بهمة الأبطال
ليجعلوها قطعاً   فحاولوا ممتنعاً
حتى إذا ما تعبوا   قام لهم ذاك الأب
وحل تلك الحزمه   لكى يبين حزمه
وخصّ كل ولد   منهم بعود مفرد
فكسروها بالعجل   كى يدركوا ذاك الأمل
فقال بعدها الأب :   خير كلام يكتب

إنى أردت رشدكم للاتحـــاد عمركم
كى تصبحوا فى العصمة من الأذى كالحزمه
فما افتراق الناس إلا نذير الياس
(بحر الآداب)

يد الله مع الجماعة

الغلام والنخلة

تقدم الركب فتى من العرب حتى أصاب نخلة ذات رطب
فهبَّ كى يجنى بعض البلح لـكنه لطولهـــا لم يفلح
فعاد يدعو الأخ والأم معه ليصحباه فى اجتلاب المنفعه
فحضرا طرًّا بلا إمهال وانتظموا من حولها فى الحال
فحمل الأخ الـكبير الأصغرا ليبلغ الحمل ويجنى الثمرا
فظفروا منها بخير جمّ ورجعوا لحيهم بالغُنم
والرزق يبغى كل من يبغيه وكل ذى رزق سيستوفيه
وهكذا منافع العبـــاد فى السعى والعزم والاتحاد
فاعمل بها والتزم القناعة إن يد الله مع الجماعة

المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه

دعا أكثم بن صيفي أولاده عند موته فاستحضر جملةً من السهام وربطها ربطاً محكماً ، وطلب إلى كل واحد منهم أن يكسرها بمفرده ، فلم يقدر واحد على كسرها .

ثم فرقها ، وأعطى كلا منهم سهماً ، فاستسهله وكسره .

فقال : كونوا هكذا مجتمعين ، ليعجز مناوئكم عن كسركم ، وأنشد :

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا افترقن تكسرت أفرادا

لا يغلب قوم تعاونوا

(واشنطون) قائد من أشهر القواد وهو الذى حرر (الولايات المتحدة) الأمريكية من حكم الدولة الانكليزية، وصيرها جمهورية من أشهر جمهوريات العالم ، وله نوادر غريبة ، وقصص كثيرة .

من ذلك : أنه مرَّ يوماً بنفر من الجند يرفعون سارية إلى أعالى بناء يريدون ترميمه ، ويشرف عليهم ملازم يأمر هذا وينهى ذاك ، وقد أعياهم التعب لقلة عددهم، وثقل السارية، وعلو البناء ، وهو يكثر من تقريعهم بالكلام ويشدد الأوامر ، ويزيد التعيير والتوبيخ ، ولا يمدُّ لهم يد المساعدة .

وكان (واشنطون) راكباً جواداً ، ولابساً ثياباً غير ثيابه العسكرية فلم يعرفه الملازم ولا الجند .

فقال للملازم : لماذا أنت واقف تأمر وتنهى ، ولا تساعد هؤلاء الجند المساكين الذين أضناهم التعب ، وسال العرق كالماء من جباههم ؟

فالتفت إليه الملازم مستخفاً به وقال :

ألا تدرى يا هذا إنى ملازم ، وهؤلاء الجنود تحت أوامرى ؟

قال : صحيح ذلك ، فعفواً أيها السيد الكريم .

ونزل عن جواده ، وجعل يرفع السارية مع الجنود، حتى أوصلوها إلى أعلى البناء ؛ ثم خاطب الملازم والعرق يقطر منه قائلاً :

إذا وقفت على هذا العمل ، ورأيت رجالك يتعبون لإتمامه ، فتعلم أيها الملازم مِن رئيس الجيش ، أن تكون فى مقدمة الذين يتعبون ، ولا تقتصر على الأمر والنهى ، فإنه (لا كبير على العمل) .

فلما علم الملازم ، أن الجنرال (واشنطون) هو الذى يكلمه ، ارتعد ارتعاداً عظيماً ، وعُقل لسانه فى فمه ، وأمسى كمن أُصيب بصاعقة .

فتركه (واشنطون) ومضى ، بعد أن علمه بصنيعه علماً لم يبرح من ذهنه طول حياته .

وحقيقةً ما من أحد فى هذه الحياة بأصغر من أن يعين ، ولا بأكبر من أن يعان والله وحده ولىّ الأمر وهو المستعان.

التعاون بالمال لا بالأقوال

حكى : أن تاجراً أصيب بحريق دمَّر له أموالًا عظيمةً ، فاجتمع إخوانه من التجار وأظهروا أسفهم وحزنهم على ماأصاب أخاهم بخطب طويلة عريضة وكان كلٌّ يختم خطابه بقوله : أشارك أخى فى مصابه العظيم ، إلى أن قام آخر وبيده كيس نقود وقال : إنى أشارك أخى فى مصابه العظيم بعشرة جنيهات ، ولفت نظره إلى من بجواره وقال له :

وأنت بكم تشاركه ؟ فقال بعشرة ، وفتح باب الاكتتاب ، فاجتمع له مال عوّض عليه ما أكله الحريق ، فزالت نكبة الرجل بالاشتراك الفعلى فى مصابه « ولا خير فى قول إذا لم يكن فعلًا » .

وهكذا تكون المساعدة الأخوية ، عملًا بقوله تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ » .

نوادر فى فضل الإخوان

والأصحاب والأصدقاء

« أحبّ لأخيك ما تحب لنفسك »

يروى عن القاضي يحي بن أكثم أنه قال :

كنت مع المأمون يوماً فى بستان غصّ بالريحان فاجتزنا طرقه طريقاً طريقاً وشققناه من أوله إلى آخره ، وكنت أنا مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل ، فكان يجذبنى أن أتحول إلى الظل ، ويكون هو فى الشمس ، فأمتنع عن ذلك حتى بلغنا آخر البستان .

فلما رجعنا قال : يا يحي ، والله لتكونن فى مكانى ، ولأكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس ، كما أخذت نصيبك ، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، لو قدرت أن أفديك بنفسى يوم الهول لفعلت ، فلم يزل بى حتى تحولت إلى الظل ، وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقى .

وقال : بحياتى عليك إلّا وضعت يدك على عاتقى مثل مافعلت أنا فإنه لاخير فى صحبة من لا ينصف ، وقد سمعت عن رسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه »

كما ترى تُرى

توجه بعض الأصحاب لزيارة الأهرام فصعد أحدهم إلى القمة ، وأراد أن يسخر بإخوانه ، فنادى بأعلى صوته متهكماً : انظروا إلىّ فإنى فى ارتفاع عظيم عنكم ، وأرى الواحد منكم صغيراً فى عينى .

فأجابوه : ونحن كذلك ، نراك فى نظرنا أصغر من الطير ، وأكبر من البعوضة ، وتمثل أحدهم بقول الشاعر :

من رآنى بعين نقص　　　رأيته بالذى رآنى
ومن رآنى بعين تم　　　رأيته كامل المعانى

مصاحبة الأخيار

رأى غلام صغير صندوقاً عند والدته فشمه ، فصادفه ذا رائحة زكية ، فقال لأمه : يا والدتى العزيزة ؛ إن هذا الصندوق من الخشب وأراه ذا رائحة جميلة ؛ وعهدى بالخشب ألا يوجد فيه مثل هذه الرائحة .

فقالت له : ياولدى ، وفلذة كبدى ؛ إنى قد وضعت ورداً فى هذا الصندوق فاكتسب منه هذه الرائحة الزكية ؛ وهكذا ياعزيزى ، إذا صاحبت أهل الصدق والأمانة ، وخالطت ذوى العفة والصيانة، فأنت تستفيد منهم الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة .

فيا ولدى ، اصحب الأخيار وارغب فيهم ، وجانب الأشرار وابتعد عنهم تعش سالمًا والقول فيك جميل ، فسمع كلامها وعمل به ، فكان من أهل الفضل والإحسان .

(ثمار الإنشاء)

هكذا تكون الصحبة

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »

روى أن رسول الله ﷺ تناوب هو وعلىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ورجل آخر من الصّحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، فى سفر على بعير ، فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى ، فيعزمان عليه ألّا يمشى ، فيأبى ويقول ، ما أنتم بأقدر منى على المشى ، وما أنا أغنى منكم عن أجر .

مثل الجليس الصالح والجليس السّوء

إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ؛ ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثةً .

(حديث شريف)

هذا مثل جميل ، وتشبيه بليغ ، ومعنى الحديث : أن جليس الإنسان إذا كان صالحاً بما حازت نفسه وأخلاقه من مكارم وفضائل وآداب كان كالذى يحمل المسك الأذفر ، وهو ما نعلم ريحاً طيبة وأريجا زكياً .

ومثل الجليس السُّوء ، أى فاسد الأخلاق ، السيء الطباع ، كالحداد الذى ينفخ الكير فى خبث ريحه ، ونتن دخانه .

فالجليس الطيب قد يعطينا من أخلاقه ومعارفه ما هو أفضل من المسك ، وينشر علينا ما هو أزكى رائحة منه ، فى حين أن الجليس السوء يفسد أخلاقنا ، ويهوش علينا أفكارنا ، ويضل عقولنا ، فهو مثل نافخ الكير ، والدنو منه إما أن يحرقنا بناره ، أو ينشر علينا من دخَانه ، وخبث ريح كيره ما فيه أعظم ضرر .

والقصد من هذه الحكمة النبوية الشريفة ، إنما هو النهى بأبلغ عبارة ، وأقرب تمثيل ، عن مخالطة الأشرار والأرذال ، ممن تؤذى الإنسان مجالستهم ، وتسرق من أخلاقهم أخلاقه ، والترغيب فى مجالسة من تنفعنا مجالستهم ، وتكسبنا الفضائل مخالطتهم ، سواء فيما يتعلق بأمر الدين أو الدنيا .

ولقد جاء فى حديث آخر صحيح الحث على مخالطة الفضلاء والصلحاء (جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء ، وخالطوا الحكماء) .

وفى حديث آخر (خير جلسائكم من ذكركم اللهَ رؤيتُه ، وزاد فى علم منطقه ، وذكركم الآخرةَ عملُه) (عن ابن عباس)

الوحدة خير من جليس السوء

عاقل حاول جهــــده أن يعيش العمر وحده
عاهد النفس على أن تثبت الأيام عهــــده
سيئ الحظ ولـكن فضــله شـــيد مجده
باحثاً فى كل فن قادحاً للفـكر زنده
عالماً أن كثير الصـ ـحب لا يرجى لشده
مارس الخلق فزادت ترهات الخلق زهده
بلغ البهتان عند النـ ـاس فى التمليق حده
كل من يفعل خيراً واجداً فى الناس ضده
فرأى فى البعد عنهم مغنماً لا غنم بعـــده
إن فى الوحدة فضلا لفتى يعرف قصــده
كل من عاش فريداً نال فى الأيام سعده
وحدة العاقل خــير من جليس السوء عنده

« آداب العرب »

الأخ وأخته المخلصة له

يحكى أن ولداً وأخته كانا يبيعان الصحف اليومية « الجرائد » فصادفهما مزيف نقود واشترى منهما بنقوده المزيفة ، فأخذاها وذهبا إلى بائع حلوى ، وأكلا من عنده ، وأعطياه الثمن من هذه النقود ، فدعا البائع شرطياً وأعطاه الولد وأخته والنقود ، فساقهما الشرطى إلى السجن ، فحكم على الولد ، وتركت البنت ، فذهبت مسرعة إلى المكان الذى كان فيه المزيف ، فصادفته مع زوجته راكباً عجلة ، فركبت خلف العجلة ، ولم يعلما بها ، ولما وقفت العجلة ، نزلت البنت مسرعةً ، وانزوت ، حتى دخل المزيف وزوجته دارهما ، فتتبعتهما خفية وكمنت فى ناحية من الدار .

فلما شرع الرجل وزوجته فى تزييف النقود كعادتهما ، ذهبت البنت مسرعةً إلى السجن ، ودعت الشرط ، فأقبلوا مسرعين ، وقبضوا على الرجل وزوجته ، وأودعوهما السجن ، وكافأوا البنت ، وأطلقوا الولد .

(ثمار الإنشاء)

الصديق المخلص

كان على رجل دين ، وكان له صديق من المخلصين ، فلما ضاقت به الحال ذهب إلى دار صديقه ، وأخبره بأمره ، فأخرج الصديق له ما كان عليه من الدَّين ، وأعطاه له ورجع إلى داره باكياً .

فقالت له زوجته : هلا تعللت حيث شقت عليك الإجابة ؟

فقال : لا ، إنما أبكى لأنى لم أتفقد حال صاحبى حتى احتاج إلى أن يسألنى .

هكذا تكون الصداقة

حدَّث واقِدُ بن أبى مُسلم قال : كان لى صديقان هاشمى وتيمى وكنا فى الصداقة كنفس واحدة ، فنالتنى فى بعض السنين ضيقة عظيمة ، فقالت لى امرأتى : ياهذا ترى العيد قد حضر وليس لنا شىء نُعيِّد به، أما نحن فنستطيع الصبر على الشدة ؛ وأما أولادنا فلا ، لأنهم يرون أولاد جيراننا ومعارفنا ، وقد تزينوا بالملابس الجديدة ، وهم فرحون بما اشتراه لهم أهلهم ، فتقطع قلبى بكلامها ، لأنى رأيه صواباً ، فكتبت إلى صديقى الهاشمى ، ووصفت له حالى ، وسألته أن يسعفنى بما يمكنه من المال ، فأنفذإلىَّ خريطة فيها ثلاثون

ديناراً ، فلم أكد أتسلمها حتى كتب لى صديق التميمى يشكو إلىَّ مثل ما شكوت أنا إلى صديقنا الهاشمى ، فأرسلت إليه الخريطة على حالها ، وبقيت فى بيتى حيران لا أدرى ماذا أفعل ؟

فبينما أنا كذلك، إذ دخل علىَّ الصديقان ، وبيد الهاشمى الخريطة فدعوتهما إلى الجلوس ، فجلسا ، ثم قال لى الهاشمى ، وقد علم ما جرى : ياصاح ، حيث أننا كلنا فى ضيقة ، وليس لثلاثتنا غير هذا المال ، فهلمَّ نقتسمه ، ثم إنه فتح الخريطة ، وقسم الدنانير ثلاثة أقسام ، كل واحد منا أخذ حصته ، وتفرقنا

وبعد أيام اتصلت قصتنا بالمأمون، فاستدعانا وأثنى على فعلنا ، وأمر لكل منا بألف دينار . « بحر الآداب »

لا يعرف الصديق إلا عند الشدة والضيق

الصداقة والإخلاص فيها

لمّا سار أبو بكر رضى الله عنه مع النبي ﷺ إلى الغار للهجرة من مكة ، فصار يمشى حيناً أمام النبيّ ، ويمشى مرةً خلفه ، وآونة عن يمينه ، وأخرى عن يساره .

فقال له النبيّ : ما هذا يا أبا بكر ؟

فقال : يا رسول الله ، أخاف أن يكون العدوّ أمامنا فأصده عنك ، أو من خلفنا فأرده عنك .

فقال النبيّ عليه السلام : لا تخف إن الله معنا .

ثم سارا حتى وصلا إلى الغار ، فأراد النبيّ أن يدخل ، فمنعه أبو بكر وقال: لا تدخل حتى أفتش الغار .

فدخل رضى الله عنه ، وصار يمس الحيطان بيده فى الظلمة ، خوفاً من أن يكون فيها شىء مؤذٍ ، ثم قال للنبيّ : أفديك بمالى وبنفسى وبأبى وأمى يا رسول الله .

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

الرجل وابن عمه

ذكروا أن رجلاً من جند اليرموك[1] ذهب يبحث عن ابن عم له بين القتلى والجرحى ، وأخذ معه قدحاً من الماء ليسقيه ، فلما عثر عليه وجده فى أشد ما يكون من التعب ، فقال له : أتحب أن تشرب ؟ فلم يستطع أن يكلمه ؛ بل أشار إليه أن يقوم .

وإذا برجل يئن ويتوجع ، فأشار إلى الرجل أن يسقيه أولاً ، ثم يعود إليه بالباقى ، فذهب إليه فوجده هشاماً أخا عمرو بن العاص .

فقال له : هل لك أن تشرب ؟ قال : نعم .

---

(١) اليرموك واد بالشام وقعت فيه حرب بين المسلمين والروم فى خلافة أبى بكر .

ثم سمع هشام رجلًا يتأوّه ، فقال للرّجل : أسرع إليه وائتني بما يبقى ، فذهب إليه فإذا هو ميت ، فعاد إلى هشام فوجده ميتاً ، ثم رجع إلى ابن عمه فرآه قد لحق بربه ، وانقضى أجله .

فتلك هي المحبة ، وهذه الصدّاقة ، وبمثل هـــذه الخلال ترقى الأمم
(ثمار الإنشاء)

الصدق والإخلاص

الأخ والأخت

دعا أحد الأدباء ولديه الأصغرين : ابنه وابنته وقال لهما سأذهب معكما لاستنشاق الهواء في البساتين الجميلة ، والحدائق الزاهرة ، وأمرهما بانتظاره ، حتى يدخل غرفته ، ويلبس ثيابه ، فجعلا يعدوان في الدار فرحاً بهذا الخبر السار ، فقلب الولد أصيص قرنفلة (قصرية القرنفلة) فانكسر وتفرق طينه ، فحزن وبكى ، فعطفت عليه أخته ووعدته بإصلاحه .

ثم ذهبت تصلحه ، فخرج أبوها ورآها عند الأصيص وهو مكسور ، فظهرت عليه علائم الكدر ، فقالت له : يا أبتِ بحق محبتك لا تغضب علينا ، فقال لها : كيف لا أغضب ، وقد ضاع تعبي في هذه القرنفلة ، فقالت : جازني بما شئت ، فأنا طوع إشارتك ، ورهن إرادتك .

فقال: إنّ جزاءك ألا تصحبيني إلى البساتين، لئلا تتلفي منها شيئاً فأكون به ملزماً ، فأذعنت لقوله ، وخضعت لكلامه .

عند ذلك جاء الولد لأبيه مسرعاً باكياً وهو يقول : مهلاً يا والدي ، إنّ أختي غير مذنبة ، أنا الذي قلبت الأصيص فانكسر ، فأنا الأحق بالحجز .

فتبسم أبوه ، وفرح لما رأى من صدق ولده ، ومحبته لأختِه ، ثم خاطب ولديه معاً ، فقال :

أنتما ولداي الحبيبان ، وابناي العزيزان ، وإني لمسرور من تمام الألفة التي بينكما ، ومما شاهدته من الحبّ والإخلاص والصدق ، وقد أنساني ذلك كل نفع كنت أنتظره من القرنفلة ، فحافظا على هذه الشيم الجميلة ، والأخلاق الكريمة ، أدامكما الله لي ، وأدام لكما هذه المحبة والإخلاص . ثم ذهب بهما إلى البساتين مسروراً ، وعاد منها مسروراً جزاء صدق الولد ، وإخلاص البنت .

هكذا تكون الألفة والمحبة بين الأسرة

أعطت والدة بنتها عنقوداً من العنب ، فقبلته منها بكل سرور ، وشكرتها على ذلك ؛ ولكونها تحب أخاها وتعزه ، قصدته وأهدت إليه العنقود ، وآثرته على نفسها مدفوعة بعامل الحنان الأخوى ، فسرّ بذلك وابتهج وشكرها من صميم فؤاده ؛ ثم فكّر هو أيضاً فى تعب والده من الأشغال ، خصوصاً فى مثل ذلك اليوم الشديد الحرارة ، فارتاحت نفسه إلى تقديم هـذا العنقود له لينعشه ويرطب فؤاده ، فأسرع إليه ، وناوله إياه ، فقبله الوالد فرحاً ، ودعا له بالبركة والتوفيق .

غير أنه تذكر زوجته وخدماتها له ولأولادها ، فأسرع إليها وقدمه لها ، فتناولته مبتهجة مسرورة ؛ لأنها رأت أن العنقود عاد إلى اليد التى تسلمته أولا ، ولم تقبل نفسها أن تنفرد بأكله ، فجمعتهم كلهم ، وأكلوه معاً ، وشكروا الله الذى ألف بين قلوبهم بالمحبة ، فتمتعوا بالسعادة والهناء .

وهكذا تكون الألفة والمحبة بين أفراد الأسرة الواحدة .

عدو عاقل خير من صديق جاهل

كان لمثرٍ خادم أمين يصدق فى الخدمة لا يمين
أقامه عاماً على الحصاد وكيله لدفع كل عاد
ودارت النوارج الكبيرة على جبال السنبل الكثيرة
فكان فى نهاره مديرها وفى ظلام ليله خفيرها
يذود عنها الناس والطيورا والخيل والبغال والحميرا
فجاءه العصفور سرباً سرباً يلقط من كل الجهات حبّا
وكلما شرده عاد له كأنه فى حربه عادله
فضاق منه صدره وحارا ومن توالى فعلها استجارا
فقال : مثلى ليس ممن يقهر وحيلى تعدادها لا يحصر
أو قد فى هذى الغلال لهبا وهى التى تلزمهنّ الأدبا
فأضرم النار كما أشارا حتى علت وأرسلت شرارا
فاحترق الجرن وطار الطير ولم يصب غير الحبوب الضير
فجاءه مولاه قال سالى أضعته يا أجهل الجهّال
ظننتك المصيب لا المصابا فى عقله والظن فيك خابا
حقيقة كم من عدوّ عاقل فى الناس خير من صديق جاهل

وأصلحوا ذات بينكم

كان بين جعفر البرمكي وبين والي مصر عداوة ووحشة ، فزوَّر بعضهم كتاباً على لسان جعفر إلى صاحب مصر ، مضمونه : أن حامل الكتاب من أخص أصحابنا ، فأريد أن تحسن الالتفات إليه .

ثم وصل الرجل إلى مصر ، وعرض الكتاب على صاحبها ، فلما قرأه تعجب ، وارتاب ، ثم أنزله عنده وأكرمه ، وبعث بالكتاب إلى وكيله ببغداد ، وأخبره بما كان ، فلما قرأه جعفر علم أنه مزوَّر ، وكان عنده جماعة من ندمائه ، فرمى الكتاب إليهم ، وقال لهم : ما ترون في جزاء هذا الرجل ؟

فأشار كل منهم بجزاء ينال ذلك المزور .

فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر : سبحان الله أليس فيكم رجل رشيد ؟

قد علمتم ما كان بيني وبين والي مصر من العداوة وأن كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح ، فقد قيض الله لنا رجلاً فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة ، وأزال من بيننا تلك العداوة فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الإساءة ؟ ثم أخذ القلم وكتب على ظهر الكتاب :

إلى صاحب مصر :

« سبحان الله ، كيف حصل لك الشك فى خطى ؟ هذا خط يدى والرجل من أعز أصحابى ، وأريد أن تحسن إليه ، وتعيده إلىّ سريعاً ، فإنى مشتاق إليه ، محتاج إلى حضوره » .

فلما وصل الكتاب إلى صاحب مصر كاد يطير فرحاً ، وأحسن إلى الرّجل ، ووصله بمال كثير ، وتحف ، ثم إن الرجل رجع إلى بغداد ، فحضر إلى مجلس الوزير جعفر ، فلما دخل سلم عليه ، ووقع يقبل الأرض ويبكى .

فقال له : من أنت ياأخى ؟

قال : أنا عبدك ، وصنيعتك ، المزوِّر الكذاب المجترئ .

فعرفه فى الحال ، وبش له وأجلسه بين يديه .

وقال له : كم وصل إليك منه ؟ فقال : مائة ألف درهم .

فاستقلها جعفر وقال : لازمنا حتى نضاعفها لك ، فلازمه مدة ، فكسب منه مثلها .

الاتفاق خير من الشقاق

صبيان صغيران وجدا جوزة . تحت شجرة جوز كبيرة ، عند مدخل القرية فقال أحدهما : هذه تخصني ، لأني أنا رأيتها أولًا .

وقال الثاني : لا ، بل هي لي ، لأنني أنا قلت لك انظر هذه الجوزة فتشاجرا ، وتخاصما ؛ ووقع بينهما الشقاق .

فوافاهما على سبيل المصادفة صبي آخر أكبر سناً وأكثر فطانة منهما وقال لهما : أنا أوفق بينكما ؛ فوقف بينهما ، وبعد ماسمع دعواهما ، فلق الجوزة نصفين ، وقال : القشرة الأولى لمن رأى الجوزة أولًا ؛ والأخرى لمن تكلم بها ، أما اللبّ ، فهو لي جزاء حكمي وقضائي .

ثم قال لهما ضاحكاً : هذه هي نتيجة كل دعوى ، وكل شقاق يحصل بين المتخاصمين ، والاتفاق خير من الشقاق .

الصحبة المتينة لاتفسدها الفتنة

كان بين حاتم طي وأوس بن خارجة ألطف ما كان بين اثنين .

فقال النعمان لجلسائه : لأفسدنّ مابينهما . فدخل على أوس فقال : إن حاتماً يزعم أنه أفضل منك . فقال : أبيت اللعن ، صدق ولو كنت أنا وأهلي وولدي لحاتم لوهبنا في يوم واحد .

وخرج ، فدخل على حاتم فقال له مثل ذلك : فقال : صدق ، وأين أقع من أوس ، وله عشرة ذكور دونهم أفضل منى .

فقال النعمان : ما رأيت أفضل منكما .

على بن عيسى وأصحابه

لما نكب علىّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحداً من أصحابه ، وآله وإخوانه ، الذين كانوا ملازمين له فى حالة تصرفه واشتغاله ، فلما ردت إليه الوزارة ، اجتمعوا إليه ، وعطفوا عليه ، وأخذ كل منهم فى السبق للقياه ، والنظر إلى محياه .

فحين رآهم كذلك أنشد :

« ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا »

« يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت عليه يوماً بما لا يشتهى وثبوا »

« لا يحلبون لحى در نعمته حتى يكون لهم شطر الذى حلبوا »

ولقد صدق أفلاطون فى قوله :

حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد ، واللهُ عن كل صديق أهدته إليك النعمة .

صاحبك عملك

يحكى أن رجلاً كان له ثلاثة أصحاب ، ملازمون على صحبته بلا ارتياب وكان يميل إلى اثنين منهم ، ولا يركن إلى الثالث إلّا قليلاً ، مع أنه كان حسن الطوية ، خالص النية .

فاتفق له فى يوم من الأيام ، أنه اتهم بتهمة جسيمة ، وطُلب إلى المحكمة وهو فى الواقع ونفس الأمر برىء . فأخبر أصحابه بهذه العبارة وسألهم أن يذهب أحد منهم معه إلى المحكمة ، ويشهد له لينجيه من الحاكم ، لأنه كان شديد الغضب عليه .

فعند ذلك اعتذر أحدهم وقال : إنه يتعذر علىّ الانتقال ، لكثرة ما عندى من الأشغال ، وذهب معه الثانى ، حتى بلغ باب المحكمة ، ثم أحجم عن الدخول معه ، خوفاً من أن يغضب عليه الحاكم ، وأما الثالث الذى كان قليل الوثوق به فإنه لم يتأخر عن الدخول معه .

فلما مثل بين يدى الحاكم ، تقدم وشهد لصاحبه ، فقبل الحاكم شهادته وعطف قلبه على صاحبه ، وبرأ ساحته ، وأطلق سبيله .

فالمراد بالأصحاب الثلاثة فى هذه الحكاية : المال ، والعيال والأعمال فإن لكل إنسان فى هذه االدنيا أصحاباً ثلاثة : ماله ، وعشيرته ، وأعماله .

فإذا قبضت روحه ، وحضر أمام الحاكم العادل ، تركته أمواله التى هى

أعز أحبابه ؛ وأما عشيرته وأخلاؤه ؛ فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ، ثم يتركونه ويرجعون إلى منازلهم .

وأما أعماله التي كان لا يعرف مايترتب عليها من الثواب الآجل ، فإنها لاتفارقه إلى أن يقف بين يدى الله تعالى ، وتشهد لصاحبها ، لا عليه ، فيشمله الله برحمته ، ويدخله فسيح جنته .

حكايات وأمثال فى حفظ الجوار

أبو حنيفة وجاره

كان لأبى حنيفة جار إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا جنَّ الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك وخمر ، فيطبخ اللحم ، ويشوى السمك ، ويأكل ويشرب ، فإذا دبَّ فيه السكر أنشد :

« أضاعونى وأى فتى أضاعوا — ليوم كريهة وسداد ثغر »

ولا يزال يشرب ، ويردد البيت ، إلى أن يغلبه السكر وينام .

وكان الإمام أبو حنيفة يصلى اللَّيل كله ، ويسمع حديث الرجل وإنشاده ففقد صوته فى بعض الليالى ، فسأل عنه.

فقيل : أخذه العسس منذ ثلاثة أيام ، وهو محبوس ، فصلى الإمام الفجر وركب بغلته ، ومشى واستأذن على الأمير .

فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ، حتى يطأ البساط ، فلما دخل أجلسه الأمير مكانه ، وقال : ما حاجة الإمام ؟

فقال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام، فأْمر بتخليته فقال : نعم، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا ، ثم أمر بتخليته، وتخليتهم أجمعين فركب الإمام وتبعه جاره الإسكاف ، فلما وصل إلى داره ، قال له الإمام : أترانا أضعناك ؟

فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعايته ، ولله عليّ ألّا أشرب بعدها خمراً .

فتاب من يومه ، ولم يعد إلى ما كان عليه .

الجار الصديق

كان الكردينال « دامبواز » وزيراً لملك فرنسا « لويس الثانى عشر » وقد امتاز بين قومه بالخبرة ، والذكاء ، وكرم الأخلاق ، وعلو الهمة .

وكان له فى إيالة « نورماندية » قصر من أفخر القصور تحف به حديقة غنّاء ؛ ولكن لم يكن لتلك الحديقة غنى عن أرض ملاصقة لها ، ليتم شكلها ويكمل رونقها ، وطالما تمنى « الكردينال » أن يحصل على تلك الأرض ، فعرض على صاحبها الثمن الجزيل ، فلم يقبل هذا أن يبيع ملكاً ورثه عن أجداده ، ويرجو أن يتركه لبنيه من بعده .

ففي ذات يوم ، كان « الكردينال » فى قصره ، فرأى جاره داخلًا يعرض عليه أرضه ، فاستغرب من ذلك ، ولم يكن لينتظره منه ، حتى كاد لا يصدق بما يسمع ، لكن الرجل أخبره ، أنه لا بد له من بيع ميراث أجداده ، ليعطى ثمنه مهراً لابنته ، فسأله « الكردينال » ، أن لم يكن له وسيلة إلى مهر ابنته مع حفظ ذلك الميراث العزيز عليه .

فقال الرجل : والله لبذل دمى أهون علىّ من بيع الأرض ؛ ولكن لابدّ من التضحية فى سبيل ابنتى .

فقال « الكردينال » : خير لك أن تستدين من أحد أصحابك بلا ربا المال المطلوب ، ثم تفيه مع طول الوقت مما تقتصده .

فنظر إليه الرجل نظرة الكمد والتحسر ، وصاح قائلًا : وأين مثل هؤلاء الأصحاب الأصدقاء ، فليس منهم من يشترينى من الدمار بدرهم ؟

قال « الكردينال » : لاتسئ ظنك فى الأصحاب ، واعتبرنى واحداً منهم ؛ ثم أعطاه المال اللازم ، والرجل فى دهش شديد ، يحسب أن أذنه تخادعه ، وعينه تغره .

ولما ثبتت له الحقيقة ، لم يتمالك نفسه من الفرح وخرّ على قدم « الكردينال » ساجداً شاكراً له جميل معروفه ، أما سرور « الكردينال » بما صنع من المعروف فلا يقدر ، وكان يقول : إنه هو الرابح لا الرجل ، لأنه ربح عوض الأرض جاراً صديقاً .

والحق يقال : إن هذه الفضيلة لمن أشرف الفضائل وأندرها ، فكم من الناس من يغتنم مثل هذه الفرصة ليحصل على مرغوبه بأبخس الأثمان

محمد بن الجهم وجاره سعيد بن العاص

عرض محمد بن الجهم داراً بخمسين ألف درهم، فلما حضروا ليشتروا، قال: بكم تشترون منى جوار سعيد؟ وكان جاراً له.

فقالوا: وهل يباع الجوار؟

فقال: وكيف لا يباع؟ ويفرد بثمن، وهو جوار من إذا سألته أعطاك، وإن سكتّ ابتدأك، وإن أسأت أحسن إليك.

فبلغ ذلك سعيدا، فوجّه إليه بمائة ألف درهم، وقال: أمسك عليك دارك.

مجاورة الأحرار لاتقوَّم بثمن

يَروى أن رجلًا كان جاراً لأبى دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وأثقله دين فادح، حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها، فسألهم ألف دينار فقالوا له: إن دارك تساوى خمسمائة دينار.

فقال: أبيع دارى بخمسمائة، وجوار أبى دلف بخمسمائة، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء دينه، ووصله وقال: لاتنتقل من جوارنا.

فانظروا، كيف صار الجوار يباع كما يباع العقار.

قال الشاعر:

يلومونني أن بعت بالرخص منزلى ولم يعلموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم: كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

ابن عبيد الله وامرأة جاره

كان رجل جاراً لابن عبيد الله ، فأصاب الناس قحط بالعراق ، حتى رحل أكثرهم عنها ، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد ، وكانت له زوجة لاتقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر ، قالت له : إذا سافرت من ينفق علينا ؟

قال : إن لى على ابن عبيد الله ديناً ، معى به إشهاد شرعى ، فخذى الإشهاد وقدميه له ، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده ، إلى أن أحضر ثم ناولها ورقة كتب فيها أبياتاً من الشعر وسافر عنها ، ثم إن المرأة بعد أيام ، مضت إلى ابن عبيد الله ، وحكت له ما قال زوجها ، وأخبرته بسفره ، وناولته الرقعة فقرأها ، وإذا فيها هذان البيتان :

قالت : وقد رأت الأحمال سائرة والبين قد جمع المشكوّ والشاكى
من لى إذا غبت فى ذا المحل؟ قلت لها: الله وابن عبيد الله مولاك

قال : صدق زوجك ، وما زال ينفق عليها ويوصلها البرّ والإحسان إلى أن قدم زوجها .

فشكره على فضله وإحسانه .

الجار السوء والحيلة فى استرداد ما سرقه

يحكى أن رجلًا أعمى كان كلما وفّر شيئاً من الدراهم يدفنه فى بستان وراء بيته ، فأحسّ بذلك جارٌ له فسرق ما كان قد دفنه .

ولما شعر الأعمى أن ماله قد سرق ، ذهب إلى جاره الذى ظن أنه هو السارق ، وقال : قد أتيتك مستنصحاً .

فقال له : قل .

قال : إن عندى قليل من المال ، ولا أعلم أى طريق خير ؟ إما أن أخبأه ، أو أن أضعه فى المصرف (البنك) .

فقال: خير لك أن تخبأه لأن فى وضعه فى المصرف خطراً، فشكره ومضى.

وفى الحال ذهب ذلك الجار بالمال الذى سرقه ، وردّه إلى الحفرة التى كان مدفوناً فيها ، مؤمّلًا أن يأخذه مع ما سيدفنه ذلك الأعمى ، فذهب الأعمى إلى الحفرة ، فوجد المال فأخذه .

ثم أتى الجار إلى الحفرة ، فلم يجد شيئاً ، فرجع بخفى حنين ، أى رجع خائباً نادماً على ما فعل .

الانتقام من الجار السوء

كان لامرأة قط جميل ، تحبه كثيراً ، لبراعته فى صيد الفئران ، وتتسلى بمداعبته ساعات الانفراد فخرج القط يوماً ، ولم يعد كعادته ، فقلقت المرأة عليه وخرجت تبحث عنه ، فوجدته فى الطريق قتيلاً برصاصة فى رأسه . فحزنت عليه حزناً شديداً .

وبعد أيام قلائل ، بلغها أن جارها هو الذى قتل ذلك القط ، لحاجة فى نفسه ، فاغتاظت من ذلك الفعل السيئ ، وصممت على الانتقام من جارها الذى لم يراع حُرمة الجوار ، ولم يشكُ ذلك القط إليها أبداً .

فاشترت جملة مصايد للفيران ، وصادت بها أكثر من خمسين فأراً ثم وضعت الفيران فى صندوق كبير ، وكتبت عليه اسم جارها ، وأرسلته إليه بالبريد ؛ ولما تسلم الرجل الصندوق ، فرح به ، وظنه هدية نفيسةً من أحد أصدقائه ، ففتحه ليرى ما فيه ؛ وإذا الفيران خرجت تثب فى وجهه ، وانتشرت فى أنحاء الغرفة وهو يتقزز من ذلك المنظر الخبيث ، ولم يدر سبباً لهذه المكيدة ثم التفت إلى الصندوق ، فرأى ورقة مكتوباً فيها العبارة الآتية :

« لقد قتلت قطى ، وحرمتنى من وجوده ، فأهديت لك هذه الفيران التى أصبحت تمرح فى بيتى بلا رقيب » .

فصبر الرجل على هذه المصيبة التى اعتبرها جزاء حقاً على سوء فعله .

« القراءة الرشيدة »

الشورى فى الإسلام

رأى الفرد وإن سما ، وفكره وإن علا ، ليس بمعصوم من الزلل بل هو عرضة للخطل ، لاسيما فى كبريات الأمور ، ومشكلات الحوادث .

الرأى كالليـــل مسودٌّ جوانبه والليل لا ينجلى إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

من أجل هذا ، جاء الإسلام حاثًّا على الشورى ، مبيناً فوائدها ، ذاكراً مقاصدها ، طوراً بحكاية ما فعل الغابرون ، كما ذكر بلسان بلقيس ملكة سبأ مخاطبة بطانتها ، وذوى الرأى من قومها ، طالبةً منهم إبداء آرائهم ، لتستنير بها فى حل ما تعقد لديها من المشاكل ويتضح لها وجه الصواب ؛ وتستبين طريق الهدى .

وذلك حين كاتبها سليمان عليه السلام :

« قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (النمل)

وحيناً بأمر نبيه عليه السلام بمشورة أصحابه ، ليستن بسنته المسلمون .

ويهتدى بهديه المؤمنون ، فيجنوا من فوائدها ، ما به يعز جانبهم ، وتعلو كلمتهم ، ويكون لهم السلطان على غيرهم ؛ قال تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ »

وأخرى بمدح المؤمنين ، وتمداد جليل خصالهم ، باتباعهم سنة الشورى فيما بينهم ، فى كل أمر من أمورهم ، قال تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

ومن قبل هذا ، كان الصحابة جميعاً ، ومن اقتفى أثرهم بإحسان ، يجعلونها رائدهم فى جليل أعمالهم ، وعظيم شؤونهم .

فكان أبو بكر لا يمضى أمراً، ولا يبرم حكماً ، إلا إذا استشار زعماء الأمة ، وقادة الرأى فيها ، ولا يقدم رجلاً إلا إذا أشاروا عليه بما يرونه الحق ، سواء أكان ذلك فى حرب أم فى فتوى .

خليلىّ ليس الرأى فى صدر واحد   أشيرا علىّ بالذى تريان

ولما احتضر الخليفة الثانى (سيدنا عمر بن الخطاب) لم يعمد فى الأمر من بعده لواحد بعينه فى الخلافة ، بل جعل الأمر شورى للمسلمين ، يختارون واحداً من ستة عينهم لهم ، وطلب إليهم فى مدى ثلاثة أيام أن يختاروا خليفةً منهم ، فاختاروا عثمان بن عفان .

ومازال الأمر كذلك فى الملة لدى الأئمة والخلفاء ، أيام عز الدولة الإسلامية وعظيم سلطانها ، فما كان يتم أمر ذو بال إلا بعد تمحيصه وبحثه ولذا كانوا موفقين فى أفعالهم ، ملهمين فى أعمالهم .

عمر والشورى

عمر هو أول من قرر قاعدة الشورى فى انتخاب الخليفة ، وقد قال فى ذلك
ذلك شاعر مصر المرحوم حافظ بك إبراهيم :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها ... وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله ... إلى الجماعة إنذاراً وتنبيهاً
إن ظل بعد ثلاث رأيها شعباً ... فجرّد السيف واضرب فى هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها ... طعم المنية مرّاً عن مراميها
درى عميد بنى الشورى بموضعها ... فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأى فى حكومته ... إن الحكومة تغرى مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

فائدة المشورة

الأسلمى والمهلب بن أبى صفرة

حكى أن رجلًا من أهل يثرب يُعرف بالأسلمى قال : ركبنى دين أثقل كاهلى ، وطالبنى به مستحقوه ، فضاقت علىّ الأرض بما رحبت ولم أهتد إلى ما أصنع ، فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى فأشار علىّ بقصد المهلب بن أبى صفرة بالعراق .

فقلت له : تمنعنى المشقة ، وبعد الشقة ، ثم إنى عدلت عن هذا المشير إلى استشارة غيره ، فلا والله ما زادنى على ما ذكره الصديق الأول شيئاً ، فرأيت أن قبول المشاورة خير من مخالفتها ، فركبت ناقتى ، وصحبت رفقة فى الطريق ، وقصدت العراق ، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له : أصلح الله الأمير ، إنى قطعت إليك الدهناء ، وضربت أكباد الإبل من يثرب ، فإنه أشار علىّ بعض ذوى الحجا والرأى بقصدك لقضاء حاجتى ، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت ، وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ، ولم أيأس من غدك .

فقال المهلب لحاجبه : اذهب به ، وادفع له ما فى خزانتنا الساعة .

فأخذنى معه فوجدت فى خزانته ثمانين ألف درهم ، فدفعها إلىّ .

فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحاً وسروراً .

ثم عاد الحاجب بى إليه مسرعاً وقال : هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك ؟

فقلت : نعم أيها الأمير وزيادة .

فقال : الحمد لله على نجح سعيك ، واجتنائك ثمرة مشورتك ، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا .

قال الأسلمى : فلما سمعت كلامه ، وقد أحرزت صلته ، أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يا من على الجود صاغ الله راحته   فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبةً   فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح   لديه فيما ابتغاه غـــير مردود

ثم عدت إلى المدينة وقضيت دينى ، ووسعـت على أهلى ، وجزيت المشيرين علىّ وعاهدت الله تعالى ألّا أترك الإشارة فى جميع أمرى ما عشت .

« العقد الفريد »

ماخاب من استخار

ولا ندم من استشار

حكى أنه خرج أحد الفلاحين ذات يوم من قرية ، لقضاء حوائج له من المدينة ، ولما انتهى من عمله ، استحسن أن يستشير محامياً مشهوراً ، فحين مثل بين يديه ألقى التحية ، وقال : قد سمعت بصيتك الذائع ياحضرة المحامى ، فجئتك لأستشيرك فى كيفية التصرف فى المعيشة الدنيوية .

فقال له المحامى : أشكرك ياصاح على ثقتك بنا ، أظن لك تعلقاً ببعض القضايا ؟

فقال : لا . لا . إن عائلتنا لم تقسم أبداً ، فقد توارثنا الاتحاد عن أجدادنا .

فقال المحامى : إذاً تبغى رفع شكوى على أحد ببيع أو شراء ؟

فقال : لست غنياً إلى هذا الحد لأشترى ، أو فقيراً لأبيع .

فقال : وما تريد منى إذاً ؟

قال : قلت لمولاى ، إنى أريد استشارة تنفعنى فى أحوال معيشتى لأنى أحب أن أغتنم الفرصة .

فعند ذلك أخذ المحامى قلماً وورقة ، وسأل القروى عن اسمه .

فأجاب : عمر .

فقال له : كم سنة عمرك ؟

قال : نحو الثلاثين سنة .

فقال : وما مهنتك ؟

أجاب : مهنتى ؟ تعنى صنعتى ، أنا مزارع .

فكتب المحامى سطراً على الورقة ، ثم طواها وأعطاها للقروى .

فقال : هذه كم ثمنها ؟

فقال : اثنا عشر قرشاً ، فدفعها بطيب خاطر ، وخرج مسروراً ، وقصد قريته ، وكان قد حصد قمحه قبل ذلك بيومين :

وعند ما وصل منزله ، سأله أحد أولاده عما إذا كان يبغى إدخال الحنطة فإنها ببست ، فوعد أن يجيبه فى المساء ، ولما أقبل الليل أمر الرجل بإدخال الحنطة فى مخازنها .

فقالت زوجته : من الغباوة أن تشتغل بالليل يا عمر !

فقال أحد الأبناء : إن الجوّ سيتغير .

فانتهرته أمه قائلة : إن الهواء معتدل، والجو صاف، وسيمضى الليل هادئاً

فكان الأب بمعزل عنهم يفكر فى أمره ، فتذكر بغتة استشارة المحامى ، فنهض قائماً وقال لزوجته: صه ، فقد ظهر الحق، وزهق الباطل، هذه استشارة من أعظم المحامين دفعت عليها ريالا لا نخذيها واقرئيها ، لأنك تعلمت فى المدرسة؛ ثم أخرج الورقة من جيبه ودفعها لزوجته .

فأخذتها وقرأت فيها ما يأتى : لا تؤخر إلى غد ما يمكنك عمله اليوم فصاح عمر : الحق أحق أن يتبع ، هيا بنا إلى أشغالنا يا أولادى . هاتوا

العربات يجرها بغالها ، وخذوا معكم الصبيان والبنات ، وأدخلوا الحنطة فى مخازنها؛ فأرادت زوجته معارضته ، فلم يتركها تتكلم، وخرج يعدو وهو يقول:

(إننا لانشترى استشارة كهذه بعشرين قرشاً ، ونتركها عبثاً ولا نعمل بها)

ولم يزل يكرر مضمون الاستشارة على رؤوس العمال طول ليلته ، ولم يطبق جفنه حتى أدخل حنطته جميعها .

وما أصبح الصباح إلا والجو قاتم ، والسماء متلبدة بالغيوم والبرق يلمع ، والرعد يقصف ، والريح تعصف ، وأمطرت السماء مدراراً ، ونزل الماء كما ينزل من أفواه القرب، وغرقت حنطة أهل البلد إلا هذا الرجل الذى عمل بالاستشارة ولم يترك وقته يمضى سدًى ، ولسان حاله يقول :

« تمتع من الدنيا بساعتك التى ظفرت بها ما لم تعقك العوائق »

« فما يومك المـاضى عليك بعائد ولا يومك الآتى به أنت واثق »

حكايات وقصص فى فضل الاستقامة

الاستقامة طريق السلامة

حكى ، أنه كان رجلان يسيحان على نهر (اللوار بفرنسا) أحدهما يمشى فى وسط الطريق المعتدلة ، والثانى يسير على حافة النهر ، فكان الأول يحذر رفيقه ، ويلفت نظره إلى الخطر الذى يتوقع حصوله له ، بقوله : يا أخى لاتطوح بنفسك إلى الهلاك بيدك ، أما تعلم إنك بعاصفة من الريح ، أو بحركة فجائية ، أو بسهوة منك لا ترى نفسك إلا فى قاع النهر ؟ أما ترانى لا خوف علىّ من الخطر الذى يتهددك، لأنى أسير فى طريق مستقيمة ؟ فأى حادث يصيبنى أكون على الأرض ، ولا ضرر على .

ولكن مع الأسف لم يصغ لكلامه ، وكان كأنه يضرب فى حديد بارد ، كما قال الشاعر :

« ومن البلية زجر من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم »

فكان ذلك المغرور يضحك من كلام الناصح ، مستهزئاً ساخراً منه ، وتحكم فى عقله الطيش ، ولم يدر ماخبأه له القدر .

فبينما هو كذلك ، وإذا بطلقة نارية سمعها من الشاطىء الآخر ، أرجفت أعضاءه ، وجعلته يفقد حركة الموازنة ، فوقع فى الماء وغرق ، ولم يتذكر قول الشاعر

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الـكدر

وأراد رفيقه أن يدركه قبل وصوله إلى قاع النهر ؛ لـكنه للأسف قد سبق السيف العذل ، وذهب المغرور ضحية الجهل والغواية ، ولا معين له ولا مغيث ، فتأسف رفيقه على ما أصابه ، وواظب على الاستقامة .

جزاء الاستقامة

كان فتى فقير جالساً ذات يوم تحت شجرة وسط الغابة يبكى بدموع حارة ويتضرع إلى الله بتلهف .

وكان وقتئذ فى الصيد أحد الأمراء لابساً ثوباً بسيطاً، فسمع صراخ الصبى الصغير ، ودنا منه ، وسأله لماذا تبكى يابنى ؟

فأجابه الفتى : واحسرتاه ! أمى مازالت مريضة من زمن بعيد، وقد أرسلنى أبى فى هذا الصباح إلى المدينة لأحضر لها الدواء من الصيدلية؛ ولـكن لسوء حظى أضعت الدراهم فى الطريق مع الـكيس الذى كانت فيه ، فتكلم الأمير بصوت منخفض مع الصياد الذى كان يرافقه ، وأخرج من جيبه كيساً صغيراً من حرير قرمزى به قطع ذهبية كثيرة لامعة ، وقال للغلام : هل هذا الـكيس الذى أضعته ؟

فأجابه : لا ياسيدى ، لم يكن ظريفاً مثل هذا الـكيس ، ولم يـكن به

قطع ذهبية أصــلًا ، فأخرج الصياد من جيبه كيساً صغيراً ، وقال له : أمثل هذا الـكيس ؟

أجابه الصبي فرحاً مسروراً : نعم ، هذا هو كيسى بعينه .

فردّه إليه الصياد ، وقال له الأمير : خذ ياولدى هذا الـكيس أيضاً مع كيسك ، فإنى وهبتك إياه ، جزاء استقامتك ، وثقتك بالله .

بالاستقامة والاجتهاد، تنال غاية الإسعاد

زار أحد الفضلاء غنياً من أغنياء أمريكا ، فرآه فى قصر منيف تحيط به حديقة غنّاء ، فيها من الأزهار والثمار ما يأخذ بالأبصار ، وعلى القصر من الآنية والرُواء ما يجعل الإنسان يظنه لأحد الملوك ، فأخذ الزائر العجب من اتساع ثروة الرجل ، وكثرة خدمه وحشمه، ومافى قصره من النفائس، وجعلا يتحدثان إلى أن انتهيا إلى وسط القصر ، وإذا هما بكوخ صغير يظهر عليه الفقر وسوء الحال ، فَبُهِتَ الزائر عند رؤيته وظهرت عليه علامات التعجب ، فالتفت إليه رب المنزل متبسماً ، وقال له : لعلك قد راعتك رؤية مثل هــذا الـكوخ وسط قصرى ؟ قال : نعم ، قد حيرنى ذلك . قال : لا تعجب ؛ فإن هذا الـكوخ هو منبع هذه الثروة العظيمة التى أدهشتك، فهو المنزل الذى وُلد فيه جدى ، وهو مؤسس هذه الثروة ، ورافع هذه الأسرة بعد الضعة ، ولد فى هذا الـكوخ وترعرع فيه ؛ ولـكنه جدّ وأعمل الفـكرة ، وساعده الحظ

والاستقامة ، فنال ماترى ، ولم يشأ أن ينسى منشأه ، فبنى قصرا حول هــذا الـكوخ ، وجعل يزوره كلـا استطاع ذلك ، حتى لا ينسى حالته القديمة ، ولايترك الاجتهاد والاستقامة ، اللذين كانا سبباً فى إصلاح حاله ، وبلوغ آماله ، فيحمد الله سبحانه وتعالى الذى هداه إلى سواء السبيل ، ويشكر له طاعته لأوامره .

وإنى أحفظ هذا الـكوخ أثراً حميدا لهذا المجتهد التقى ، حتى لاأترك خطته ، ولا أسلك غير سبيل الاستقامة ، فإنى أخشى أن مالا جمعه العلم والحزم ، يبدده الجهل والطيش .

الاستقامة طريق السعادة والسلامة

كان لأحد التجار الأغنياء خادم فطن ، وكان يحبه محبةً شديدةً ، لأمانته واستقامته ، وحسن سيرته .

فنى ذات ليلة ، سمعه يتذمر من دهره ، ويشكو مر الشكوى من سوء حاله ، فرق قلبه ، ومالت عواطفه إليه ، وجاءه قائلًا : لِمَ تشكو وأنت عندى فى أعظم منزلة ؟

فأجبه : أشكرك ياسيدى ، شكر العبد لمولاه ، وإنى أشكو من سوء حالى ، وكثرة عيالى .

فقال له : وما الذى يمنعك من أن تـكون غنياً وهو فى طاقتك ؟

قال : يمنعنى قلة المال ، فإن كان للغنى باب غير تحصيله فدلنى عليه لأطرقه، وأعيش آمناً مرتاح البال ؟

فقال : اذهب فى الغد إلى الساحل، فترى هناك الناس يتزايدون على شراء مركب من الشاى ، واشتره لنفسك .

قال : هل يتاح لى ذلك وأنا فقير لا أملك شروى نقير ؟

قال : ذلك لا يهمك ، فاذهب وزد على الجميع واشـــتره وأنا أدبر أمرك بعد ذلك .

فبات الغلام ليلته على أحر من الجمر ، يعدد مصائب الدهر ، وما طلع الصباح حتى هرع إلى الساحل ، فوجده غاصًّا بالناس ، وجميعهم يتزايدون على شراء مركب الشاى ، فاخترق الصفوف حتى وصل إلى الأمام ، ورفع الثمن على الجميع ، فتعجب البائع ، ولـكنه لم يلبث برهة حتى سمع همساً فى أذنه ، إن المشترى غلام فلان التاجر الشهير ، فقبل البيع دون أن يفوه بكلمة ، فانتشر الخبر فى نواحى البـــلاد ، أن التاجر الفلانى الشهير يخزن الشاى ، وارتفعت أسعاره ارتفاعاً عظيماً .

وفى اليوم الثانى قال التاجر لخادمه : اذهب وبع الشاى ، فأسرع وباعه بثمن أقل من الثمن المتداول ، حتى باعه فى وقت قصير ، وربح منه مالًا طائلًا ، كان سبباً فى سعادته ، وذلك بفضل استقامته .

من استقام نجا من التهم والملام

توفى أحد التجار فى مدينة (بوستن بأمريكا) ووجد بين أوراقه سنداً على تاجر آخر اسمه (صمويل ايلتن) فطولب به .

فقال : إن الخط مثل خطى والإمضاء ، ولكن السند ليس علىّ ، ولم أكن مديناً لهذا الرجل ، فرفعت الدعوى إلى الحكومة ، وكان القاضى متعصباً ، ويريد أن يثبت عليه السند ؛ ولكن الأعضاء كانوا يثقون باستقامته ثقةً تامةً ، ولم يروا وجهاً لإنكاره السند لو كان حقيقة عليه ، لأنه غنى ، ولم يسمعوا عنه أنه هضم حق أحد ، فحكموا أن السند مزوّر ، وبرؤوه من هذه التهمة ، وبعد مدة وجد إنسان آخر باسم (صمويل إيلتن) وكان ربان سفينة ، فأقرّ من نفسه أنه هو الذى كتب السند ، وأنه مدين به لذلك التاجر ، فثبت بذلك براءة التاجر ونجا بفضل استقامته وحسن سمعته .

الاستقامة سر السعادة والهناء

والاعوجاج مجلبة الفقر والشقاء

كان لتاجر ميسور الحال فى مصر ولدان ، أحدهما يدعى (عبـــد الرزاق) لم يسعده الحظ بدخول المدارس ، أو تلقى شىء من العلوم والمعارف ، بل كان جاهلًا ساذجاً ، ضعيف الرأى ، فاتر العزيمة ؛ وأما الثانى هو أصغرهما واسمه (سعيد) فقد أسعده الحظ بدخول المدرسة ، ثم خرج منها وله إلمام تام بالقراءة والكتابة وإمساك الدفاتر وعلوم الدين ومشاهدات الطبيعة وغيرها .

وكان لوالدهما تجارة رائجة اقتنى منها ثروة لا بأس بهـــا ، وأسس فرعاً فى إحدى مدن الوجه البحرى . فلما وافاه القدر المحتوم أخذ الأخوان يتحادثان فى تقسيم التركة فعرض (سعيد) على أخيه أن لا ينفصل أحدهما عن الآخر ؛ بل يقومان بشئون التجارة معاً ، فلم يوافق (عبد الرزاق) على هذا الرأى، بل طلب أن يأخذ كل منهما نصيبه ، فيستولى هو على تجارة أبيه فى مصر تاركا لسعيد الفرع الذى فى الوجه البحرى .

فلم ير سعيد بُدًّا بعد الإلحاح الشديد من الإذعان ، فأخذ عبد الرزاق يعمل بما يُمليه عليه جهله ، ويوجهه إليه سوء تدبيره من الإسراف والتبذير فى الملبس والمسكن ، وإيلام الولائم لمن يحيط به من الجهال الساقطين ، تاركا حبل أمور تجارته على غاربها ، يتصرف فيها العمال على حسب أهوائهم ومشيئتهم، غير مُصغ لنصيحة ناصح ولا وعظ واعظ .

فما تم الحول حتى نفد ما تركه له أبوه من المال ، ثم ثقل عليه الدين وتعددت مطالب الوفاء ؛ ولكن كيف السبيل إلى الوفاء ما دامت التجارة قد أصبحت كاسدة والدفاتر مرتبكة ، بإهمال الكاتب الذى لم يرَ أمامه رقيباً ولا حسيباً ؟ وعلى الجملة أصبحت حالة عبد الرزاق سيئة للغاية ، وأدت لشكاية الدائنين أمام القضاء الذى لم يرَ بُدًّا بعد سماع القضية ودرس المسألة من الحكم بإفلاسه ومصادرة جميع أملاكه ، وتصفية تجارته ، فأمسى هذا المسكين طريداً فى حالة ترثى لها . وكل ذلك بسبب اعوجاجه ، وعدم استقامته .

أما سعيد فقد كان لحظه من اسمه نصيب وافر ، إذ أخذ بعد تسلمه أعماله يرقبها بنفسه ، ويطلع على كل ما يجرى فى محله ؛ يبكر فى الصباح ويعكف على العمل فى منزله فى الليل ، ثم يريح جسمه وعقله من عناء العمل استعداداً للقاء اليوم التالى دائباً على الصدق وحسن المعاملة ، مستمعاً للنصائح ، معتبراً للعبر ، مقيم الصلاة ، ومؤتى الزكاة ، يصل ذوى القربى واليتامى والمساكين ، فما تم الحول حتى بارك الله له فى تجارته فعظم احترامه بين الناس ، وأصبح فى درجة يغبط عليها .

فانظروا رحمكم الله كيف كانت عاقبة الجهل والحَيْدَةِ عن الطريق المستقيم؟ وكيف آلت حالة عبد الرزاق التعس الذى جرّ على نفسه العسر بعد اليسر ، والفقر بعد الرخاء ، حتى لوث سمعته وسمعة أسرته ، وأصبح عبرة لمن يعتبر ؟ وانظروا إلى سعيد ، وكيف كانت عاقبة نشاطه واستقامته ومثابرته على العمل، خير معوان له على ارتقاء حالته ، وتمكين قدمه فى التجارة وإحرازه النصيب

الأوفر فيها حتى صار محله التجارى قِبْلَةَ كل طالب ومنزله كعبة كل قاصد .

« تهذيب البنين »

من يستقم يأمن شرّ المنتقم

قال منارة صاحب شرطة الرشيد ومحل ثقته :

رُفع يوماً إلى الرشيد ، أن رجلًا بدمشق من بقايا بنى أمية ، كثير المال عظيم الجاه ، مطاع فى البلد ، له أولاد ومماليك ، وأتباع يركبون الخيل ؛ ويحملون السلاح ، فعظم ذلك على الرشيد ، فدعانى وقال :

إنى قد دعوتك لأمر أهمنى ، حتى منعنى النوم ، ثم قصّ علىّ خبر الأموى ، وقال :

قد أعددت لك كل ما يلزمك للسفر من الزاد والنفقة والخيل ، فاخرج الساعة ، وضم إليك مائة غلام ، وخذ هذين الكتابين ، تعطى أحدهما للأموى فإن أطاع فأوثقه فى الوثاق ، وائتنى به ، وإلّا فاذهب بالآخر إلى نائب دمشق ليكون مساعداً لك عليه ، وجئنى به صاغراً ذليلًا ، ولا تكل أمره إلى غيرك حتى يكون بين يدى ، وإذا دخلت داره ، فتعرفها وجميع من فيها ، من أهله وولده ، وغلمانه ، وقدر نعمته من الجال والمحال ، واحفظ ما يقوله حرفاً بحرف من وقت أن يقع طرفك عليه إلى أن تحضر به .

فركبت وانطلقت أصل السير بالسرى ، إلى أن بلغت دمشق ، فقصدت دار الرجل ، فولجتها على هيئتى ، بدون استئذان ، فلما صرت فى صحنها ، رأيت قوماً جلوساً فقاموا إلىّ ورحبوا بى ، فقلت : أنا (منارة) رسول أمير المؤمنون ، إلى صاحبكم فأين هو ؟

قالوا : فى الحمّام .

ومضى بعضهم يستعجله ، وأنا أتعرف الدار ، فوجدتها تموج بأهلها فلم أزل كذلك مدةً طويلةً ، حتى اشتد قلقى ، وخفت من أن الرجل يتوارى عنى ، إلى أن لمحت شيخاً مقبلاً ، وعليـــه آثار الاستحمام ففهمت أنه هو ، فسلم علىّ سلاماً خفيفاً ، ودعانى إلى الجلوس ، ثم سألنى عن أمير المؤمنين ، فأخبرته بما وجب ، وما شعرت إلا وقد جاءنا الغلمان بأطباق فاكهة ، فقال الرجل : تقدم يا (منارة) وكل معنا . فقلت : ما تتوق نفسى إلى ذلك ، فلم يعاودنى ، فأكل هو ومن معه ، ثم غسل يديه ، ودعا بالطعام ، فجاءوا بمائدة فاخرة ، لم أرَ مثلها إلا للخليفة ، فقال : يا (منارة) ساعدنا على الأكل ، فامتنعت فما عاودنى ، فأكل هو ومن معه أيضاً ، وقد كان غلمانه عند دخولى ، أخذوا غلمانى وعدلوا بهم إلى دار أخرى ، فبقيت وحدى ، وليس معى إلا خمسة غلمان ، وقوف على رأسى ، فقلت فى نفسى : هذا جبّار عنيد ، فإن امتنع لم أطق إجباره ، ولا حفظه بنفسى ومن معى ، إلا أن يلحقنى أمير البلد ، فجزعت جزعاً شديداً ، ورأيت استخفافه وتهاونه بأمرى ، فما كان يزيدنى

أن يدعونى باسمى ، كما يفعل الخليفة ، ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ، ولا يسأل عن سبب مجيئى إليه ، ويأكل مطمئناً ، وأنا أعمل الفكر فى ذلك كله، فلما فرغ من الأكل وغسل يديه ، قام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة ، ثم انتقل من المحراب ، وأقبل علىّ وقال : ما جاء بك يا مفارة ؟

فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ، ودفعته إليه ، ففضه وقرأه ، وحالما استتم القراءة نادى أولاده وحاشيته ، فاجتمع منهم خلق كثير .

فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، وبعد أن تكامل عددهم . قال لهم : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضىّ إليه ، ولست أقيم بعد نظرى إليه ساعة واحدة، ومالى حاجة أن يصحبنى أحد .

ثم التفت إلىّ ، وقال : هاتِ قيودك يا مفارة .

فأمرت غلمانى بإيثاقه ، وحمله إلى المحمل ، فحملوه فى شقة منه ، وركبت أنا فى الشقة الأخرى ، وسرت من وقتى بالرجل ، وليس معه أحد ، إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بالبساطة . حتى انتهينا إلى بستان فى الغوطة . فقال لى : أترى هذا ؟

فقلت : نعم .

فقال : إنه لى ، وفيه من غرائب الأشجار والأزهار كيت وكيت ثم انتهينا إلى آخر. فقال لى مثل ذلك .

ثم مررنا بمزارع فاخرة ، وقرى عامرة ، فأعاد كلامه السابق ، فاشتد غيظى منه . فقلت : ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك ، وأخرجك فريداً مقيداً ، لا تدرى كيف يكون أمرك ، وأنت خلىُّ البال ، تصف ضياعك وبساتينك بعد ذلك كله ، ولا تفكر فيما يؤول إليه حالك ؟

فقال لى : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ لقد أخطأت فراستى فيك ، فإنى كنت أظنك رجلًا عاقلًا ، لم تحل من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوا بك من الكمال ، إذ عقلك وكلامك يشبهان ما للعوام .

أما خروجى من بلدى على صورتى هذه ، فلا أبالى به ، لأنى على ثقة من الله عز وجل ، الذى بيده ناصية أمير المؤمنين ؛ على أنى لست بمذنب فأخافه ؛ فإذا عرف أمرى ، ووقف على صلاح ناحيتى ، أيقن أن الحسدة والوشاة رمونى لديه بما ليس فىَّ البتة ، فيردنى إلى أهلى مكرماً ، وإن كان قد سبق فى علمه سبحانه ، أن يلحقنى منه سوء ، وقد اقترب أجلى ، وكان انتهاؤه على يديه ، فإنى على كل حال أحسن الظن بالله الذى يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت .

وقد كنت ظننت أنك تعرف هذا ، ولكنى وجدتك على خلاف ظنى وعليه فلا أكلمك من الآن بكلمة واحدة ، حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله عزت قدرته .

ثم أعرض عنى ، فما سمعت منه غير التسبيح ، أو طلب ماء أو حاجة ، حتى شارفنا مدينة السلام ، فحططت رحلى ، ودخلت على الرشيد :

فقال : هات ماعندك (يامنارة) ، وإياك أن تفوتك كلة واحدة ، فسقت الحديث من أوله حتى وصلت إلى ذكر الفاكهة والطعام ، وما حدثتنى به نفسى من إمكان إبائه ، والغضب يظهر فى وجه أمير المؤمنين ، ويتزايد ؛ حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة ، والتفاته إلىّ ، وسؤاله عن سبب قدومى ، ودفعى الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار أولاده وأصحابه ، وكلامه لهم ، وطلبه القيود ، فأخذ محيا الرشيد يسفر ، حتى انتهيت إلى ما خاطبنى به ، عند توبيخى له ، وهو يصف لى أملاكه .

فقال : والله ما هذا الرجل إلا محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمرى لقد أزعجناه وآذيناه ، فبادر بنزع قيوده ، وائتنى به .

فخرجت ، ونزعت قيوده ، وأدخلته إلى أمير المؤمنين ، فما هو إلا أن رآه ، حتى لاحظت ماء الحياة يجول فى وجه الرشيد .

فدنا منه الأموى ، وسلم ووقف ، فردّ عليه ردًّا لطيفاً ، وأمره بالجلوس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله ، وحال بلده ، والرجل يجيبه أحسن إجابة ، ثم قال له :

بلغنا عنك أمور أحببنا معها أن نراك ، ونحسن إليك ، فاذكر حاجتك ، فشكره الأموى شكراً جميلا ، ودعا له بدوام العز والبقاء ، ثم قال : ليس لى عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة .

فقال : مقضية والله ، فما هي ؟

قال : أن تردّني إلى أهلي وبلدي

فقال : نفعل ، ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح معاشك فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا .

فقال : يا أمير المؤمنين، عمالك منصفون، وقد استغنيت بعدلهم عن مسئلتي، فأموري كلها مستقيمة في ظل أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : يا خير إنسان ، انصرف إلى بلدك وولدك ، محفوفاً بالأمان.

فودعه الأموي ، ولما صار إلى الخارج قال لي الرشيد :

احمله من وقتك إلى محله ، ففرح به أهله ، وأعطاني عطاء جزيلاً ، فرجعت شاكر جميل صنعه .

(بحر الآداب ج ٣ ـ ص ٦١)

عدم الاستقامة سبب الفضيحة والملامة

قال أحد الأدباء دعتني بعض الظروف للذهاب إلى جهة المالية، فجلست عند أحد باعة المرطبات ، وكان بجانبي خمسة شبان ، تلوح عليهم مخايل الذكاء، وشرف النفس ؛ ثم جاء شاب سادس ، وحياهم ، فلم يردّوا تحيته ، بل قالوا بلهجة شديدة تنح عنا أيها الولد الساقط الفاسد ، فما أحد منّا يريد أن يدنس يده بوضعها في يدك ، فمضى الشاب كاسف البال ، يتعثر في أذياله ، ويرثى لسوء

حاله ، فأردت أن أستفسر عن السبب الذى حدا بهم إلى مقاطعة هذا الشاب ، فأجابونى : إنه كان فيا مضى حسن السير والسيرة، محبوباً من الجميع ، نستأنس به ونجالسه ، ولكن مع الأسف الشديد ، عرف شاباً أكبر منه سناً ، وأعرف بمواطن الرذيلة ، فأغراه وقاده إلى حيث تذبح الفضيلة ، وتنتهك الحرمة، فزلت قدمه معه فى الرذيلة ، فضلّ عن طريق الهدى والاستقامة ، وسلك مسالك التهم والملامة .

وقد اتصل بنا سوء خبره ، من اثنين من أسرته ، طالما نصحاه بالإقلاع عن هذه الخطة الشائنة ، والسلوك السيء ، فلم ينتصح لهما ، ولم يرجع إلى سيرته الأولى ، وذلك لشدة تأثره بمؤثرات ذلك القرين السوء ، وقد أجهدا أنفسهمامعه، فلم يظفرا ببغيتهما، فتوسلا إلينا لعلمهمابصداقتنا ، وإخلاصنامعه. بأن نوالى نصحه ، وننقذه من صحبة ذاك الشقى الفاسد ، فكان حظنا معه حظ قريبيه فلهذا السبب ، آلينا علىأنفسنا أن نتركه وشأنه ، وأن نقاطعه ، ونبتعد عنه ، ابتعاد السليم من الأجرب ، لأنه يكون لنا نحن معشر التلاميذ سبةً وعاراً .

سمعت هذه الحكاية منهم ، فأكبرت شعور هؤلاء الطلبة النجباء ، وقلت : ياليت شعرى متى ترجع النفس عن غيها ، فلا تغرر بالنفوس الشريفة ، فتطوح بها إلى ميدان الرذيلة والفساد ؟

ولله درّ الشاعر :

« لن ترجع النفس عن غيّها   ما لم يكن منها لها زاجر »

إن مقاطعة أولئك الشبان الشرفاء ، المستقيمي السلوك ، لذلك الشاب ، له معنى شريف كبير ، لأن مصاحبة مثله ، يعتبر سيئة لهم ووصمة يوصمون بها ، وقرين السوء يشين سمعة قرنائه .

وجدير بأن يحكم على هذا الشاب المغرور الفاسد الأخلاق، السيء السلوك، بالموت الأدبي ، والطرد من جماعة مكارم الأخلاق ، فلا يصاحبه فاضل ، وتكون عاقبته الوبال ، والوقوع في أسوأ حال .

حكايات وأمثال فى فضل القناعة

مثل من قناعة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه

وعدم قبوله أكل شىء ليس له ولا يعلم أصله

عن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر غلام يغل عليه (أى يخونه) فأتاه ليلة بطعام ، فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟

فقال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟

قال : مررت بقوم فى الجاهلية ، فرقيت لهم (أى صنعت لهم رقيـة) ، فوعدونى ، فلما أن جاء اليوم ، مررت بهم ، فإذا عرس لهم ، فأعطونى .

فقال أبو بكر : أفٍّ لكَ ! وكدت تهلكنى .

فأدخل يده فى حلقه ، وجعل يتقيأ ، وجعلت اللقمة لا تخرج .

فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء .

فدعا بعس « قدح كبير » فيه ماء فجعل يشرب به ، ويتقيأ ، حتى رمى بها .

فقيل له : يرحمك الله أكل هذا من أكل هذه اللقمة ؟

فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة . (محاسن الآثار ج ١)

فانظروا رحمكم الله إلى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه لم يرض بلقمة واحدة تدخل فى جوفه ؛ لأنها لم تكن له ، وأخرجها من بطنه ، لأنه كان حريصاً على أكل الحلال ، وهذا منتهى القناعة ، وعدم النظر إلى ما فى أيدى الغير .

مثـــال

من قناعة سيدنا عمر وورعه وزهده

كان من عادة سيدنا عمر ، إذا نزل بالقوم مجاعة ، ألّا يأكل داخل بيته ، بل يأخذ طعامه ، ويشترك مع القوم ، إلى أن تنتهى المجاعة ، حتى يعلموا أن الخليفة لا يأكل من غير ما يأكلون معه .

وقد قال فى حقه شاعر مصر المرحوم حافظ بك إبراهيم :

إن جاع فى شدة قوم شركتهم	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفـــة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها ؟
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشريها ؟
لا تمتطى شهوات النفس جامحـــة	فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مال المسلمين بما	توحى إليك إذا طاوعت موحيها
قالت : لك الله إنى لست أرزؤه	مالًا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئاً من وظيفتها	فى كل يوم على حال أسويهـــا

حتى إذا ما ملكنا ما يكافئها ... شريتها ثم إنى لا أثنيها
قال : اذهبى واعلمى إن كنت جاهلة ... أن القناعة تغنى نفس كاسيها
وأقبلت بعد خمس وهى حاملة ... دريهمات لتقضى من تشهيها
فقال : نبهت منى غافلاً فدعى ... هذى الدراهم لا حق لى فيها
ويلى على عمر يرضى بموفيه ... على الكفاف وينهى مستزيديها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت ... بعد النبوّة أخلاق تحاكيها

الزاهد القنوع

حكى أن رجلًا زاهدا من أولياءالله ، لحقته الفاقة والحاجة ، فأخلقت ثيابه ، وتمزقت أهدابه ، فجلس إلى جدار يرقع هدومه ، ويرتق فتوقه ، ويسد ثلومه ، ويقول فى نفسه : لئن بلغ منى التعب والجوع مبلغه وعزت علىّ المضغة ، وبدّد الفقر شمل اللباس ، فذلك أسهل لدىّ من بسط اليدين ، وأخف علىّ من وطأة الدّين .

فمرّ به أبناء السّبيل ، ورآه أحدهم يخفى حاله بالانزواء فى أركان الجدران . فقال له : أيها الفقير ، كيف تبقى كذلك ؟ وفى هذا البلد الطيب محسن كريم الأخلاق ، وطاهر العراق ، وله على المعوزين أمثالك يد بيضاء ، تقودها إلى فعل الخير شيم سمحاء ، فهو يسبغ على أهل الفاقة نعمته ، ويطعمهم من جوع ،

ويؤمنهم من خوف ، ينقذهم من الهوان ، ويشد أزرهم ، إذا أصابهم الضيم والحيف ، وأنه لوعرف حالك قتل فقرك ، وفرج أزمتك ، وستر عورتك وخفف عنك ويلتك ، فما عرفنا أنه يخذل فاضلًا قعد به الزمان أو عالمًا لعبت به طوارئ الحدثان .

فقال الزاهد : اعلم ياأخى أن الزاهد يفضل أن يأوى إلى جحر اليربوع ، وأن يموت من العرى والجوع ، على أن يستجدى ، وقد جاء فى الحكم : أن ترقيع الثياب ، أخير من سؤال الأصحاب ، وإحراق المرء بنار الوعيد سيداً ، أولى من أن يدخل الجنة عبداً .

الوزير القنوع

حكى أن وزيراً عزل فانخرط فى سلك الدراويش ، فلما عاش فيهم ، وامتزجت نفسه بنفوسهم ، استل خيرُهم ما كمن فى نفسه من الشرور التى تلصق برجال الدولة ، فعادت إليه القناعة بعد أن هجرته ، ووصلته الفضيلة بعد أن عفا فعفته .

وحدث أن السلطان عاد ، فرضى عنه واستدعاه إلى منصبه ، فأبى الوزير القنوع أن يعود إلى متاعب الوزارة ، وفضل الاعتزال على السفر والمال ، واختار الوحدة فى التقشف ، على الاجتماع بالناس ، وما يقتضيه ذلك من التزين والتصرف ، وحسنت لديه حياة الزاهدين المتصوفين ، بقدر ما قبحت فى عينه

عيشة الوزراء والسلاطين ؛ فلما ألحّ السلطان فى طلبه أجابه الوزير :

اعلم يا مولاى ، أننى تركت وراء ظهرى حدائق وأعنـاباً ، وكواعب أتراباً ، وخيلاً مسومةً ، وقناطيرمقنطرةً ، وعدةً وعديداً،ومراكب وعبيداً ، وخرجت خروج الحيّة من جحرها ، وبرزت بروز الطائر من وكره ، مؤثراً دينى على دنيـاى ، جامعاً يمناى إلى يسراى ؛ لأننى آثرت الفقر مع الحرية ، على الغنى فى المذلة ، ومن كان مثلى فقد أعتق رقبته ، واستل من قلبه سخا ئم الضغن والحقد ، وأخرج سموم الغيظ والحسد ، ودان بدين التساهل والتسامح وبذا نجوت من لوم اللائمين وقطعت ألسنة القادحين .

فأجابه الملك : لا ريب أن الدولة محتاجة إلى حكيم مثلك ، طاهر النفس قويم الخلق ، حسن السلوك ، ليدير شؤونها . ويصلح ما فسد من أمورها .

فقال الوزير : إنه من الحكمة التى تصفنى بها أن أبتعد بطهرى وعفتى عن شؤون الملك ، لئلا يعتريها الرجس ، ويشوبها الكدر .

طلب الرزق بالحرص

ماذا يفيد ذا الغنى غنـاه   إن لم يزِنْه الفضل فى دنيـاه ؟
فلا يجـارى النفس فى مَطْمَعها   ويضع الأموال فى موضعها
بَرًّا بنفسه وبالأوطان   وبالفقير من بنى الإنسان

هذا الذى يعيش فى الحيـــاة منشرح الصدر إلى الممات
يقنعُ يستغنى يُلاقى حظّـا ولم يَخف لأئمة ووعظـــاً
أمّا الذى يعيش بالتقتير فعيشه بالذّل والتحقير
مهما يبالغ فى طلاب الثروة فماله مما ينـــال حُظوة

(آداب العرب)

عظة الأحياء بالأموات

هى القناعة فالزمها تمش ملــكا لو لم يكن منها إلّا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعهـــا هل راح منها بغير القطن والــكفن

كم من ملك تحت التراب ، وكم عاهل طواه الثرى طىّ السجل للــكتاب ، وكلهم ذهب ولم يترك وراءه أثراً ، ولم يخلف بعــده ذكراً ولا خبراً ، الّا جسداً بالياً ، وعظاماً نخرة

أين كسرى ، وأين ملــكه وسلطانه ؟ أين قصره وإيوانه ، أين حشمه وخوله وغلمانه ؟ أين مجده وثراؤه ؟ أين عماله ووزراؤه ؟

ألم يلحقهم الموت والخراب ؟ ألم يصبهم ما أصاب القرون الأولى من الدمار والتباب (الهلاك) ؟

فيا أصحاب الجدود المرزوزة ، والأردية المطروزة ، والدور المنجدة ، والقصور المشيدة ، إنــكم لن تأمنوا حادثاً ، ولن تعدوا وارثاً ، فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا الدهر ما أحسن .

أطيب العيش القناعة

أصابت داود الطائى فاقة كبيرة ، فجاءه حماد بن أبى حنيفة، رضى الله عنه، بأربعمائة درهم من تركة أبيه .

وقال : هى من مال رجل لاأقدم عليه امرأ فى زهده وورعه وطيب كسبه

فقال له داود : لو كنت أقبل من أحـــد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت ، وإكراماً للحى ، ولـكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة .

حكيم يرفض خدمة السلطان

لقناعته

كان ابن أبى صادق الطبيب ، حسن الشمائل ، مهذب الأخلاق ، متقناً لأجزاء الحـكمة ، دعاه السلطان إلى خدمته .

فأرسل إليه يقول : إن القنوع بما عنده ، لايصلح لخدمة السلطان ومن أكره على الخدمة لاينتفع بخدمته .

من لا يقنع بمملكة واحدة
لا يقنع بالكون كله

لما عزم الملك (برهس) على محاربة الرومان ، تقدم إليه (سينباس) الحكيم وقال له :

هب أنك حاربت الرومان ، وتغلبت عليهم ، فماذا تفعل بعد ذلك ؟

فقال : أهجم على جزيرة (صقلية) وأفتتحها .

فقال (سينباس) : ثم ماذا تفعل بعد فتح (صقلية ؟) .

قال : أعبر إلى أفريقية وأفتتح (قرطاجنة) .

فقال (سينباس) : ثم ماذا تفعل بعد فتح (قرطاجنة ؟) .

قال : أعيد الكرة على اليونان وأتغلب عليهم .

فقال سينباس : ماذا تفعل بعد ذلك ؟

فقال الملك : أقيم فى قصرى وأرتاح فيه .

فقال سينباس : ومن يمنعك الآن عن القيام فى قصرك والراحة فيه ؟

ثم قال : اعلم يا مولاى أن من لم تنفعه مملكة واحدة لا يقنع ولو ملك المسكونة كلها .

فاقتنع الملك بكلامه وعدل عن محاربة الرومان . وهذا يؤيد قول الشاعر :

ما كل ما فوق البسيطة كافياً   فإذا قنعت فبعض شيء كافٍ

نصيب الإنسان فى الأرض

تصارع الملك (فيلبس المكدونى) مع أحد المصارعين ، فوقع على الأرض، وكانت مفروشة بالرمل .

فلما نهض ورأى أثره فيها قال :

إنى لأعجب ممن لا تكفيه الدنيا كلها وهو حى ، ونصيبه منها أشبار وهو ميت .

لو كنت قنوعاً لما طلبت شيئاً

بنى أحد الأغنياء بيتاً جميلًا وكتب على بابه هذه الجملة :

« إننى قد عاهدت نفسى بأن أهب هذا البيت لمن كانت له قناعة تامة » .

فجاء إليه رجل وقال : إننى لم أكن قط فى حياتى غير قانع ، ولم تزل القناعة درسي وديدنى ، فإن كان ما كتبته هنا حقا يكون البيت لى شرعاً .

فأجابه على الفور : يا صاحبي لو كنت قنوعاً لما طلبت بيتى .

لا خير فى ملك يباع بشربة

قال ابن السماك الكوفى الزاهد المشهور للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح ماء ليشربه :

يا أمير المؤمنين ، فلو منعت منك بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟

فقال الرشيد : بملكى كله .

قال ابن السماك : يا أمير المؤمنين ، فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدى نفسك ؟

قال : بملكى كله .

قال ابن السماك : يا أمير المؤمنين لاخير فى ملك لا يساوى بولة ولا شربة.

القناعة خير من متاعب المال

عاش فى زمن من الأزمان إسكافٌ نافع ، يعمل بياض نهاره فى مهنته ، مستعيناً على متاعبها بالغناء ، وكان بجواره رجل غنى من أصحاب الملايين ، فاتفق أن قابله فى يوم من الأيام وسأله قائلًا :

ماذا يُدِرُّ عليك عملك فى العام يا صديقى ؟

فأجابه الإسكاف ضاحكاً : تسألنى ماذا يُدِرُّ علىّ عملى فى العـــام ،

ولست أجمل حسابى على هذه القاعدة ؛ لأننى أعيش من يدى لفمى ، وكل شمس تشرق تحمل لى معها رزق يومها ، وفى آخر العام أجد إيرادى على قدر نفقاتى .

فقال له الغنى : حسناً يا صديق ، وكم مبلغ رزقك فى اليوم إذا ؟

فأجابه الإسكاف : إن رزقى يختلف قلةً وكثرةً من يوم لآخر ، وعلى أية حال فإنى أدبر معيشة يومى على قدر ما أصيب فيه من الرزق .

فقال له الغنى : إنى أريد أن أؤمنك مخاوف الفاقة ، وهذه مائة دينار فخذها وحافظ عليها لتنفق منها عند الحاجة .

فدهش الإسكاف لهذه المفاجأة الغريبة إذ لم يتفق له مرةً أن تجمع فى يده مثل هذا القدر الضخم .

ولما اطمأنت نفسه إلى أن هذه الثروة أصبحت ملكه ، ذهب فى الحال إلى منزله حيث طمرها فى أرضه ليكون آمناً عليها ؛ لكنه مع الأسف لم يدر أنه قبر معها سعادته وهناءه ، إذ أن الطمأنينة وهدوء البال اللذين لازماه فقيراً قد فارقاه غنياً ، فصار منقبض الصدر ، دائم القلق ، أذله الحرص وأقضت مضجعه الوساوس ، ووصلت الأوهام به بين ناظريه وبين المكان الذى أودعه تلك الثروة فلم يغمضا عنه طرفة .

فلما ضاق بهذه المتاعب ذرعاً ذهب إلى جاره الغنى وقال له :

خذ مالك يا سيدى ، ورد إلىَّ سعادتى وقناعتى ، فإن الشقاء — فيما أرى — ملازم للثروة .

« التربية بالقصص »

الصحة كنز ثمين

سافر شاب قوى الجسم ، مملوء عافية وصحة ، فكان يطوى الفيافى والقفار وفى آخر النهار تعب ومال ليستريح فى أحد الفنادق وتغذى مما كان أمامه ، ولكنه كان يتذمر من فقره ، ويدعو الله أن يكون غنياً ، ليسافر إما فى مركبة أو راكباً جواداً ، وليأكل كل ما يشتهيه من أنواع الطعام .

وبينما هو يفكر فى ذلك ، إذ أقبلت عربة بها رجل تلوح عليه سمات الغنى ولما وصل الفندق طلب مأكولات فاخرة فأكل وتلذذ وهو قاعد فى عربته وخدمه من حوله . فحسد الشاب الغنى على رفاهيته . فنظر إليه الغنى وناداه قائلا :

تعال أيها الشاب ، فأعطيك إن رضيت كل ما تملك يدى من متاع هذه الدنيا ، وأن تعطينى صحتك وقوتك .

ثم أمر عبيده بحمله أمام الشاب فإذا هو مفلوج مقعد ، ففى الحال تغيرت أفكار الشاب وقال له : أشكرك يا سيدى ، وأشكر الله على ما أنا فيه من الصحة والعافية ، وقد رضيت بحالى ، وحقاً إن الصحة كنز ثمين ، والقناعة كنز لا يفنى ، وقال أحد الحكماء :

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلّا المرضى .

حكايات وأمثال فى ذم الطمع

الطمع سبب الحرمان

يحكى : أنه لما اشتدت المجاعة فى بلاد مصر ، أيام عبد اللطيف البغدادى ، كان فيها رجل غنىّ احتكر القمح فى المخازن ، حتى يعلو سعره ، فلما اشتد الغلاء ، ونفدت الحنطة من البلاد ، وبلغ ثمنها مبلغاً فاحشاً ، فتح مخازنه ، وفى ظنه أنه صار أغنى أهل الأرض ، فوجد أن السوس قد أكل القمح كله ، ولم يبق منه إلا النخالة ، فكان طمعه ، سبب حرمانه ، وسوء حاله .

نتيجة الطمع

يروى أن رجلا فرنسياً اسمه (فوسكو) جمع ثروة عظيمة فقاده حرصه وطمعه أن حفر لها بئراً عميقة تحت منزله ، وصنع للبئر باباً إذا أغلق انقفل من نفسه ، حتى يأمن نسيانه مفتوحاً ، وفى أحد الأيام نزل إلى البئر ليتفقد أمواله وبيده شمعة فانغلق الباب وراءه من نفسه ، فأخذ ينادى ويستغيث ، ولا سامع ولا مغيث .

ولا يعلم أحد شيئاً من أمره ولا من أمر البئر .

ولما انقطع الرجاء من وجوده ، اشترى البيت رجل آخر ، وعزم على أن

يغيّر بناءه فعثر على البئر المذكورة ؛ ولما فتحها وجد فيها خزائن من الأموال التى لاعدد لها ، ووجد جثة صاحبها (فوسكو) وكان قد أكل الشمعة وأكل اللحم من ذراعه ، ثم مات جوعاً وخنقاً ضحية طمعه وحرصه .

عقاب الشره وعلاجه

حكى أنه كان لبعض النـــاس غلام مشهور بالشره ، وأنه كان يراقب غفلات أهله وينكب على الأطعمة ليقضى منها شهوته ، فاستيقظ أبواه لأمره ، وأخذا يرقبانه ، وأرادا أن يصلحاه من علته ، فالتجآ إلى حيلة لطيفة وهى : أنهما أعدّا فى ليلة فطيرة بالعسل ، وأمرا الخادم أن يضعها فى الخزانة بمرأى من الغلام ثم راقباه غفلة منه ، وأبدلا الفطيرة بمثلها من الورق المقوى ؛ ففى اليوم الثانى عندما آن وقت الفطور اختبآ فى مكان قريب ليبصراه منـــه ولا يراها ، فأتى الغلام وهو يمشى على أطرافه أصابعه ، ويلتفت يميناً وشمالًا ، ثم فتح الخزانة ، فوقع نظره على الفطيرة عن بعـــد وهى مغطاة وقلبه يرقص طرباً ، وقد سال لعاب الشره فى فمه ، ورفع الغطاء ، ومدّ إليها يده ، فأحس أنها جامدة فتأملها فوجدها ورقاً مدهوناً بالعسل ، مكتوباً عليها : « هكذا يقع الشره المفجوع ، فى الفخ المصنوع » فاحمرّ وجه الغلام خجلًا ، وارتبك فى أمره ، وارتعشت مفاصله ، ووقع فى حيص بيص ، وبينما هو كذلك إذ سمع قهقهة عالية ، ورأى أباه وأمه وإخوته قد دخلوا عليه بغتةً ووراءهم الخدم

يضحكون من أمره ويهزأون من عمله ، فلم يعد الغلام يملك نفسه من البكاء والعويل ، وكاد أن يغشى عليه ، لولا أن أمسكه أبوه وسكن روعه ، فوقع الغلام على قدميه يسأله العفو والسماح عن زلته ، ووعده أنه لا يعود إلى مثل ما فعل ، فرضىَ أبوه عنه واستقام الغلام بعد ذلك ، ونال رضا الأهل والإخوان .

جزاء الفلاح الجشع

كان لفلاح فقير حقل صغير يزرع فيه اللفت ، وكان ذلك الفلاح مجتهداً لا يمل من العمل فى خدمة أرضه ، حتى أتى زرعه بمحصول جيد يناسب عمله ، ووجد من بينه لفتةً كبيرةً لم يرَ مثلها من قبل ، ففكر فى أن يهديها الحاكم القرية ؛ فلما قدمها إليه قبلها مسروراً من اجتهاده وكافأه بجنيهين تشجيعاً له على العمل .

فسمع بذلك فلاح غنى جشع فى القرية نفسها ، فحسد الفقير على ما ناله من العطاء وقال فى نفسه : إذا قدمت إلى الحاكم أحسن نعاجى فلا بد أن يجزل لى العطاء عليها . فأربح أكثر من ثمنها أضعافاً ؛ فجاء بها إلى الحاكم ورجا منه أن يقبل الهدية ، فأبى الحاكم لما يعلم فى الرجل من الأثرة والطمع ، فألحّ عليه الرّجل ورجا منه أن يقبلها .

فقال الحاكم : ما دمت تُلح علىّ بقبــول هديتك ، فأنا أقبلها على أن أعطيك شيئاً أنفقت فيــه ضعف نعجتك ، فأبرقت عينا الرجل فرحاً بهذا الـكلام اللطيف ، وظن أن الهدية تعوضه أكثر مما أنفق .

ثم أهداه الحاكم اللفتة فانقلب فرحه ترحاً ، وأخذها وانصرف نادماً على خسارة نعجته . « القراءة الرشيدة »

حكمة فى الدواء الشافى من الطمع

قال بعض الأبدال : مررت ببلاد الغرب على طبيب ، والمرضى بين يديه ، وهو يصف لهم علاجهم ؛ فتقدمت إليه وقلت : عالج مرضى يرحمك الله ، فتأمل فى وجهى ساعةً ثم قال : خذ عروق الفقر ، وورق الصبر ، مع أزهار التواضع ، واجمع الـكل فى إناء اليقين ، وصب عليه ماء الحياة ، وأوقد تحته نار الحزن ، ثم صفّه بمصفاة المراقبة فى جام الرضا ، وامزجه بشراب التوكل ، وتناوله بكف الصدق ، واشرب به بكأس الاستغفار ، وتمضمض بعده بماء الورع ، واحفظ نفسك من الحرص والطمع ، فتشفى بإذن الله تعالى .

وصف جامع المال

جَمَعَ المـال كادح　　من جميـع الموارد
وقضى العمر كُلّه　　في عَناء المجاهد
بين سعى لرزقه　　ودفاع لحاسـد
نال بعد العَنَا الغنى　　وتَمامَ المقاصد
ناله غيرَ أنه　　لم يعش عيشَ راشد
حبس المال حاسباً　　أنه غير بائد
حيثُ جازت مَبَرَّةٌ　　جازها لم يُساعد
ظَلَّ في بخله إلى　　أن مضى غير عائد
وَهِمَ العمر خالداً　　ليس شيء بخالد
مات عن كل ما اقتـ　　ـنى من طريف وتالد
وبه الناس مُتِّعت　　من مُريبٍ وصائد
أنعيمي أمّ خالد　　(رُبَّ ساعٍ لقاعد)
(آداب العرب)

وصف محب المال

مِنَ الريفِ فلاَّح تطلع الغنى وبات لَه حبٌّ المكاسب ديدنا
وكان له طين خَصيبٌ فَرام أن يزيد به أرباحه مُتفننا
فقال أرى كلّ المكاسب فى الرِّبا به يقتنى وافرُ الرزق هَيّنا
فأَوقرَ بالرهن المُقسَّط أرضَه وأقرض بعض المال بالكسب مُوقنا
وأخفى الذى أبقاه فى الدار راجياً مزيد مُراباة به أن تمكنا
فأما مُدينوه ففازوا بماله ولم يَكُ منهم واحد لِيُؤَمِّنَا
وأمَّا الذى أبقاه منه خبيئة فأدركه لص وعفاه مَوْهِنا
فبات بلا مال وغال حرامه حَلالَه واعتاض بؤساً من المُنى
بلوغ المنى ألاّ تكاثر بالمنى ونيلُ الغنى ألاّ تفكِّر فى الغنى
ومن كان للدنيا أشَدّ تصوُّنا تجِده عن الدُّنيا أشدّ تصوُّنا
(آداب العرب)

العمدة والمضارب

مِنَ الرِّيف فى إحدى المدائن عُمدَة ... تَظاهر بين النَّاس بالكَسب والغُنم
فصار يبيع الطينَ آنا ويشترى ... سِواهُ بلا رَأى سديد ولا فَهم
يُسدد من هذا لهذا دُيونه ... بغير تروّ فى الحساب ولا علم
إلى أن مضى عامٌ وأقبل غيره ... وزاد عليه الدين من قلة الحزم
فما قام بالدين الذى حل قِسطه ... وباع جميع الطّين فى الحال بالرغم
فما نال ما كانت عليه جُدوده ... وما زاد إلا النقص فى الجاه والإسم
وأيقن أن الدهر يهدم صرفه ... بِناءً لمن يغتر فى الدّهر بالوهم
وإن وفاء الدين لم يكن ... وفاء ولكن كان غرماً على غرم

(آداب العرب)

الجاهل المثرى

يضع النقود الجاهل المثرى ... فى غير موضعها ولا يدرى
فَيَضَنُّ فى الحاجات عن سَعَةٍ ... ويَفيض للغايات عن بَحْر
هذا هو المغرور تبصرُهُ ... خَلْفَ الغرور مُؤملاً يَجرى
يَهوى من الدنيا الظهور بها ... فَيزيد فى التبذير للفخر

والجود ليس بنافع أبداً إن لم يكن فى مورد البرّ
شرّ المواهب ما تجود به فى غير محمدة ولا أجر

لاعب الميسر

حكاية الوارثِ للأموال نادرةٌ صارت مع الأمثال
قد كان يقضى الليل والنهار كِلَيْهما فى لعبة القِمار
وكان لا يلعب إلّا بالذهب غير مبال إن تَبقَّى أو ذَهب
ولم يزل يُسلبُ منه المال حتى انتهى وساء منه الحال
وبات بعد العز فى المذلّه وبعد صحة أليفَ علّه
قد كان يُدعي بعظيم الفضل فصار يُدعى بثقيل الظل
هذا جزاء الطيش فى الشباب والطيشُ لا يهدى إلى الصواب
ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه
تلقى الفتى الأهواء فى العناء وربما أفضت إلى البلاء
(إنّ الشباب والفراغ والجدَه مفسدة للمرء أىُّ مفسده)

(آداب العرب)

مات فريسة طمعه

من غريب ما يحكى عن الطماعين : أن سفينة كبيرة ضربت فى الصخور بقرب « بلاد برازيل » وكان فيها صناديق مملوءة (بالريالات الإسبانية) فأخرج النوتية بعضها إلى ظهر السفينة أملًا فى صلاحها .

ولكنهم لما رأوا أن السفينة أخذت فى الغرق تركوها وأسرعوا إلى القوارب ، وقبل أن تسير بهم القوارب التفت ربان السفينة فرأى واحداً من النوتية حاملًا فأساً وقد عالج بها صندوقاً حتى فتحه وجعل يملأ جيوبه بالريالات فناداه : هلم إلى القارب وإلا تركناك ؟

فقال : اتركونى فقد عشت فقيراً طول حياتى ومرادى أن أموت غنيًّا ، فما تم كلامه حتى غرقت به السفينة فمات فريسة طمعه .

ربَّ أكلة منعت أكلات

هذا مثل يضرب فى الطمع والجشع . ومعناه ربَّ أكلة هاضت فمنعت صاحبها من التلذذ بغيرها .

وقال ابن هرمة فى هذا المعنى :

ربَّ أكلة منعت أخاها بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يشقى بشىء وفيه هلاكه لو كان يدرى

يحكى أن بعضهم دعى إلى وليمة ، فلما جلس على المائدة ، صار يأكل بشراهة وجشع ، حتى ملأ جوفه ، والناس حوله ينظرون إليه نظرة انتقاد واحتقار ، وهو لا يلتفت إليهم ، ولا يحسب لهم حساباً .

ولما دخل إلى مضجعه أصيب بحمى شديدة ألزمته الفراش مدة أسبوعين وكانت القاضية عليه ، فمات ضحية شراهته وطمعه .

أطمع من أشعب

أشعب الطمّاع هو رجل من أهل المدينة ، وهو أشعب بن جبير مولى عبد الله بن الزبير وكنيته أبو العَلاء

سأل أبو البراء أبا عبيدة عن طمعه فقال :

اجتمع عليه يوماً غلمان المدينة يعابثونه ، وكان مزاحاً ظريفاً مغنياً ، فآذوه فقال لهم : إن فى دار بنى فلان عرساً فانطلقوا إليه فهو أنفع لكم فانطلقوا وتركوه .

فلما مضوا قال : لعل الذى قلت من ذلك حق ؟

فمضى فى أثرهم نحو الموضع فلم يجد شيئاً ؛ وظفر به الغلمان هناك فآذوه .

وقال له سالم بن عبد الله : ما بلغ من طمعك يا أشعب ؟

قال : ما نظرت قط إلى اثنين فى جنازة يتسارّان إلّا قدّرت أن الميت

قد أوصى لى من ماله بشىء ، وما أدخل أحد يده فى كمه إلّا أظنه يعطينى شيئاً .

وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟

فقال للقائل له : لم تقل هذا إلّا وفى نفسك خير تصنعه بى .

وقيل ، إنه لم يمت شريف قط من أهل المدينة إلّا استعدى أشعب على وصيه أو وارثه ، وقال له : احلف أنه لم يوص لى بشىء قبل موته ووقف على رجل يعمل طبقاً من الخيزران فقال له :

وَسِّعه قليلًا . قال الخيزرانى كأنك تريد أن تشتريه ؟

قال : لا ؛ ولكن ربما يشتريه بعض الأشراف فيهدى إلىّ فيه شيئاً .

وقيل له : ماذا بلغ من طمعك ؟

قال : أرى دخان جارى فأثرد عليه (أى أفت الخبز عليه) .

وقيل له أيضاً : ما بلغ من طمعك ؟

قال : ما رأيت عروساً بالمدينة تزف إلا كنست بيتى ورششته طمعاً أن تزف إلىّ .

الرجل الأكول

قيل : نزل رجل من الأكالين بصومعة راهب ، فقدم له أرغفة وذهب ليحضر له عدساً ، فحمله وجاء به ، فوجده أكل الخبز ، فذهب وأتى إليه بالخبز ، فوجده أكل العدس ، ففعل ذلك معه عشر مرات ، فسأله الراهب : أين مقصدك ؟

فقال : إلى الرى .

فقال له لماذا قصدته ؟

قال : بلغنى أن بها طبيبا حاذقاً أسأله عما يصلح معدتى ، فإنى قليل الاشتهاء إلى الطعام .

فقال له الراهب : إن لى إليك حاجة .

قال وما هى ؟

قال : إذا ذهبت وصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك إلىّ ثانياً .

الطفيلي وما جرى له

بلغ المأمون أن عشرة من أكابر البصرة يسعون في زرع الفتن بين أهاليها، فقبض عليهم في صبح ذات يوم؛ وسيقوا إلى ضفة نهر العرب ليقلع بهم إلى بغداد، فرآهم طفيلي هناك فلم يظن إلّا أنهم اجتمعوا لنزهة آخرتها وليمة فاخرة، فاختلط بهم، ودخل الزورق معهم، فلم يشعر إلّا بتقييدهم وتقييده أيضاً: فعلم حينئذ أنه وقع في ورطة، ورام أن يحتال للخلاص فلم يمكنه، وسار بهم الزورق حتى وقف بميناء (بغداد) وأدخلوا على الخليفة وجعل يستدعيهم بأسمائهم واحداً فواحداً، ويسألهم ويذكرهم أفعالهم وأقوالهم، ويسمع أجوبتهم؛ حتى تحقق جناياتهم، فأمر بضرب أعناقهم في الحال.

فبعد ضرب العشرة، بقي الطفيلي واقفاً. فقال المأمون للوكيل: ومن هذا؟

قال: لا علم لي بحاله، غير أني رأيته معهم في الزورق فجئت به.

فقال الطفيلي: والله يا أمير المؤمنين إني بريء منهم، ولا أعلم من أمرهم شيئاً، وإنما نظرتهم مجتمعين فظننت أنهم ذاهبون إلى وليمة فلحقت بهم.

فضحك المأمون وقال: لقد سلم هذا الجاهل من القتل، ولكنه يؤدب لئلا يعود إلى مثل هذا الفعل المذموم. (بحر الآداب)

الطبيب والملك

« كل قليلاً تمش طويلاً وتسلم   من عوادى الأسقام والأدواء »

« إنما يغتذى الكريم ليبقى   وبقاء السفيه للإغتذاء »

ورد فى الآثار عن (أزدشير بانجان) أنه سأل طبيباً عربيا خبيراً بالعقاقير وتركيبها ، والأمراض وأعراضها ، عن قدر ما يكفيه من الطعام .

فقال الطبيب ، إن مائة درهم تسد الرمق ، وتجدد القوى ، وتعيد إلى البدن نشاطه :

فقال الملك : وأى رمق تسد تلك الدراهم المعدودة ، وهى لا تشبع من سغب ، ولا تسمن من جوع ؟.

فقال الطبيب : إن هذا القدر يكفى القنوع ، ويحفظ كيان الجسد ، وأما مازاد عنه فجلبة العناء ، ومدعاة العلل والأدواء .

واعلم أيها الملك ، أن المرء إذا وقف عمره على الموائد الممتعة ، والمآكل الشهية هلك .

سوء عاقبة الشراهة والطمع

لما كان الحرّ شديداً ذات يوم من أيام الصيف الماضى ؛ مضى أحد الأولاد إلى البرية، وسار مسرعاً ، حتى احترق خداه وكاد يموت عطشاً ؟ فوصل إلى عين ماء جارية تحت ظل شجرة عظيمة ، يتفجر ماؤها من صخرة ، ويسيل صافياً متلألئاً كخيط من الفضة ، فأخذ الولد يشرب منه بشراهة !

ولكن مع الأسف ، حالما شرب منه وقع مغشيًّا عليه ، وعاد إلى والديه مريضاً ومصاباً بحمى شديدة خطرة .

وكان يقول متوجعاً على سريره : أواه ! من الذى يا تُرى وضع لى سمًّا فى هذا الماء ؟

فسمعه أبوه وقال له : ليس الماء علة مرضك ، لأنه طاهر نقى ؛ بل سبب مرضك شراهتك ، وقلة فطنتك ، وهذا عاقبة الشراهة والطمع فى كل شىء ، فتنبه الولد وعرف السر فى مرضه . واتبع نصيحة والده ، وتأكد من قول الشاعر :

« يا من يؤمل نبلًا من فتى شره ... يعده عارفوه من ذوى البِطْنَه

« لا ترتجِ الخير ممن عند معدته ... يضيّع العقل والإدراك والفِطْنَه

طالب الكنوز، بغير الندم والحسرة لا يفوز

أتى رجل، عند غروب الشمس، لابس زيًّا غريباً، حاملاً كتاباً كبيراً تحت إبطه، وبيده عصاً بيضاء غليظة، وتقدم أمام فلاح بسيط وقال له: جئت إليك لأبوح لك بسرّ مهمّ فيه فائدتك ومصلحتك، وهو: أنه يوجد فى حقلك كنز مدفون فيه كمية وافرة من قطع الذهب والفضة، فإن قبلت أن تعطينى عشرها، لا أتأخر عن البحث والتنقيب عن هذا الكنز حتى تصير غنيًّا من أصحاب الملايين.

فقابل الفلاح هذا الخبر بكل سرور وارتياح، وقبل منه هذا الشرط آملا أن يكون غنيًّا فى أقرب وقت.

فلما انتصف الليل ذهبا إلى الحقل، ومعهما مجرفتان وعجلة صغيرة، فحفرا حفرة كبيرة عميقة وهما فى هدوء وسكون، فلقيا صندوقاً كبيراً وثقيلاً، كان وضعه هذا الرجل فى هذه الحفرة وحملاه على العجلة إلى بيت الفلاح بكل سهولة، وهناك أخذ ذلك الرجل الدجال يفحص الصندوق من جوانبه، ويمسه بعصاه تارةً من ناحية، وتارةً من أخرى، وهو يقرأ فى كتابه جملاً غير مفهومة، ويشير بإشارات سحرية، وكان يهز رأسه بوجه مكفهر عبوس.

وأخيراً قال: قبل فتح هذا الصندوق يجب أن تستعمل بعض الأدوية السرية لفك السحر والطلاسم، ولا توجد هذه الأدوية عند أحد فى العالم

إلا عند صيدلى (أجزجى) قاطن فى محل بعيد عن هذا المكان بأربعين كيلومتراً؛ ولكنه لا يعطيها بأقل من عشرة جنيهات .

وكان الفلاح يومئذ عنده هذا المبلغ ثمن فرس باعه من منذ يومين ؛ فدفعها للساحر المكّار ، فأخذها منه ، وسافر فى تلك الليلة ، ولم يعد بعد ذلك .

فانتظر الفلاح رجوعه زمناً طويلًا ، ولما يئس من حضوره اضطر أن يكسر الصندق ، ولما فتحه لم يجد به لا ذهباً ولا فضة ؛ بل وجده مملوءاً بالحصى الذى أخذه من الساقية التى بالحقل ، وعليه ورقة صغيرة مكتوب فيها:

طالب الكنوز ، بغير الندم والحسرة لا يفوز .

فخسر الفلاح ماله ، وساء حاله ، وأخذته الحسرة والندم ، ولا ينفع الندم بعد العدم .

الخبز أنفع للإنسان من اللؤلؤ

قصد أحد السياح السفر فى الصحراء ، فتاه فى قفر من القفار المرملة من غير أن يصادف مسكناً للاستراحة فيه ، فلما أوشك أن يهلك جوعاً وعطشاً ، وجد نخلة تجرى تحت ظلها عين ماء بارد ، فاستراح بجانبها ، ووجد بالقرب منها كيساً صغيراً ، فلما جسّه صاح قائلًا :

تبارك الله ، لعلّ هذا تمر يدفع عنى ألم الجوع ؟ ولكن لما فتح الكيس، وجد به لؤلؤاً فتألم وتوجع ، وقال : إن الخبز الذى نقتات به أثمن من هذا اللؤلؤ .

فهذا السائح المسكين كاد يموت جوعاً فى جانب هذه اللآلىء التى تساوى ألوفاً من الريالات ، وبينما هو يتضرع إلى الله إذ ظهر له فى الحال رجل غريب راكب جملًا ، فدنا منه بسرعة ، وقال له : يا سيدى هذا الكيس ملكى ، وقد تركته هنا قبل سفرى .

فسرّ السائح بوجوده وسلمه إياه ، فشكره على أمانته ، وأعطاه خبزاً وأثماراً لذيذة ، ثم أركبه معه على جمله ، وقاده إلى غاية سفره ، وقال له الغريب :

انظر يا سيدى ، ما أعجب طرق العناية الإلهية : إننى كنت أعتبر فقدان لآلئى رزية كبيرة ، ولكن ما أسعدنى اليوم ! حيث أراد الله أن أرجع على عقبى وأصل إلى هنا لأنقذ حياتك ، وهذه سعادة ما كنت أحلم بها ، فشكراً لله على ذلك .

ويل لطلاب الدنيا

كان فى زمن سيدنا عيسى عليه السلام ثلاثة سائرون فوجدوا كنزاً فقالوا : قد جعنا فليمض واحد منا فليبتع لنا طعاماً ، فمضى واحد ليأتيهم بطعام فقال : الصواب أن أجعل لهما فى الطعام سمًّا قاتلًا ليأكلاه فيموتا . وأنفرد أنا بالكنز دونهما ، ففعل ذلك ، وسم الطعام واتفق الرجلان الآخران أنهما إذا وصل إليهما بالطعام قتلاه وانفردا بالكنز دونه .

فلما وصل إليهما بالطعام المسموم قتلاه ، وأكلا من الطعام فماتا . فاجتاز عيسى عليه السلام بذلك المكان، فقال للحواريين : هذه الدنيا ، فانظروا كيف قتلت هؤلاء الثلاثة وبقيت بعدهم ؟ ويل لطلاب الدنيا من الديان .

(التبر المسبوك)

قيمة الدنيا فى نظر الأنبياء والصالحين

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً : يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا ؟

فقلت : نعم .

فأخذ بيدى وانطلق حتى وقف بى على مزبلة فيها رءوس الآدميين ملقاة وبقايا عظام نخرة ، وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين .

فقال : يا أبا هريرة ، هذه رءوس الناس التي تراها ، كانت مثل رءوسكم كانت مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيـا ، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون ، وكانوا يجدّون فى جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدون فاليوم ثوت عظامهم ، وتلاشت أجسامهم كما ترى ، وهذه الخرق كانت أثوابهم التى يتزينون بهـا عند التجمل وقت الرعونة والتزين ، فاليوم قد ألقتها الريح فى النجاسات ، وهذه عظام دوابهم التى كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها ؛ وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التى كانوا يحتالون فى تحصيلها ينهبها بعضهم من بعض قد ألقيت عنهم بهذه الرائحة التى لا يقربها أحد من شدة نتنها .

حكايات وأمثال فى ذم الحسد

سيدنا يوسف عليه السلام

وحسد إخوته له

كان لسيدنا (يوسف) أحد عشر أخاً لأبيه، وكان والده سيدنا (يعقوب) يحبه أكثر منهم، ولا يقدر على مفارقته.

فلما اشتعلت نار الحسد فى قلوبهم، وأخذتهم الغيرة منه، فكروا فى أن يبعدوا سيدنا يوسف عن أبيه حتى يستأثروا بمحبته، فاتفقوا على أن يرموه فى البئر فذهبوا إلى أبيهم وقالوا له:

« يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ».

فأرسله معهم ولم يدر سوء نيتهم نحوه.

ولما بعدوا عن البلد ألقوه فى البئر ولطخوا قميصه دماً ورجعوا إلى أبيهم يبكون ويقولون: أكله الذئب فبكى أبوهم حتى ابيضت عيناه من الحزن، ثم مرّ جماعة فأرسلوا أحدهم ليحضر لهم الماء، فأدلى دلوه فى تلك البئر، فتعلق بها سيدنا يوسف، فأخرجه وأحضره إلى من معه، ففرحوا به وباعوه لوزير ملك مصر، فأكرمه واتخذه ولداً، ثم إن الله سبحانه وتعالى علّم سيدنا يوسف تفسير الأحلام، فكان إذا فسّر رؤيا لشخص تحصل كما قال.

فلما رأى ملك مصر رؤيا خاف منها ، وعرضها على العلماء ، فلم يعرفوا تفسيرها ؛ ولما عرضت على سيدنا يوسف فسرها تفسيراً سرَّ الملكِ فسأله عن حاله .

فعلم أنه أمين صادق ، حسن المعاملة ، قوى الفكر ، فاتخذه وزيراً له فى مصر وفرح الناس به ، ويسَّر الله لهم الأرزاق فى زمنه ، فارتقى شأنه عندهم ثم جمعه الله بأبويه وإخوته فى مصر ، فرأوه فى هذه المنزلة الرفيعة ، وفرحوا فرحاً شديداً ، واعترف إخوته بخطئهم ، واعتذروا له ولأبيهم ، وطلبوا منهما الصفح والمغفرة ، فغفرا لهم وسامحاهم ، وعاشوا جميعاً فى صفاء وهناء ، عليهم الصلاة والسلام .

المرأة الحسود

قيل : إن امرأة كانت فى المدينة شديدة الإصابة بالعين لا تنظر إلى شيء إلا دمّرته ، فدخلت على (أشعب) تعوده ، وهو محتضر يكلم بنته بصوت ضعيف ويقول : يا ابنتى إذا متّ فلا تنوحى علىّ ، وتندبينى ، والناس يسمعونك تقولين وا أبتاه ! أندبك للصلاة والصيام ، والفقه والقرآن فيكذبونك ، ويلعنوننى ثم التفت أشعب ، فرأى المرأة ، فغطى وجهه بكمه وقال لها : يا فلانة سألتك بالله العظيم إن كنت استحسنت شيئاً مما أنا فيه فصلى على النبي وآله .

فقالت : سخنت عينك ، وفى أى شيء أنت حتى أستحسنه ؟ إنما أنت فى آخر رمق من الحياة .

فقال أشعب : قد علمت ذلك ؛ ولكن قلت قد تكونين استحسنت خفة الموت علىّ ، وسهولة النزع فيشتد ما أنا فيه .

فخرجت من عنده وهى تشتمه ، فضحك من كان حوله حتى أولاده ونساؤه ، ثم مات رحمه الله تعالى .

سوء عاقبة الحسد

قيل : إن رجلًا من العرب دخل على المعتصم فقرّبه وأدناه ، وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير كثير الحسد ، فغار من البدوى وحسده ، وقال فى نفسه : لابد من مكيدة لهذا البدوى ، فإنه قد أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدنى منه ، فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله ، وصنع له طعاماً وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوى قال له : احذر أن تقرب من الأمير ، فيشم منك رائحة الثوم ، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به ، وقال : إن البدوى يقول عنك للناس ، إن أمير المؤمنين أبخر ، فلما أتى البدوى طلبه المعتصم ، فلما قرب منه جعل كمه على فمه مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم ، فلما رآه أمير المؤمنين ، وهو يستر فمه بكمه قال : إن الذى قاله الوزير عن البدوى صحيح ، فكتب

المعتصم كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه : إذا وصل إليك كتابى هذا فاضرب رقبة حامله .

ثم دعا البدوى ودفع إليه الكتاب ، وقال له : امض به إلى فلان ، وجىء سريعاً بالجواب ، فامتثل البدوى ما رسم به المعتصم ، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده ، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال له : أين تريد ؟ قال : أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير فى نفسه : إن هذا البدوى ينال من التقليد مالًا جزيلًا . فقال له : ماتقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ويعطيك ألفى دينار ؟

فقال له : أنت الكبير ، وأنت الحاكم ، ومهما رأيته من الرأى أفعل . فقال : هات الكتاب ، فدفعه إليه وأعطاه الوزير ألفى دينار ، فركب الوزير فسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده . فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنقه .

وبعد أيام تذكر الخليفة أمر البدوى وسأل عن الوزير . فأخبر بأن له أياماً ما ظهر ، وأن البدوى مقيم بالمدينة ، فتعجب المعتصم من ذلك . وأمر بإحضار البدوى وسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير .

فقال المعتصم : قاتل الله الحسد ، بدأ بصاحبه فقتله ، ثم خلع على البدوى خلعة ، واتخذه مكانه وزيراً .

فكاهة

قدّم صيّاد سمكة إلى أحد الملوك فأنعم عليه بأربعة آلاف درهم فأخذها وخرج ، فاغتاظت الملكة ودبت فيها روح الحقد والحسد !

وقالت له : ما هذا أيها الملك ؟ أتعطى ثمن سمكة ، لاتساوى أكثر من درهم ، أربعة آلاف درهم ؟ هذا مما يجعل رعاياك تستخف بك .

قال : فكيف العمل إذًا ولا يمكن للملك أن يرجع فى هبته ؟

قالت : يوجد عندى طريقة حسنة تتخلص بها وهى : أن تحضر الصيّاد وتسأله عن جنس السمكة ، فإن قال : ذكر ، فقل : أنا طالب أنثى ، وإن عكس ، فاعكس .

فأمر بإحضار الصياد ، فلما مثل بين يديه قال :

قل لى يارجل : سمكتك ذكر أم أنثى ؟

قال : ليعش مولاى الملك ، إن سمكتى لا ذكر ولا أنثى ، بل خنثى .

فأعجب الملك وقال للملكة : يجب أن تدفعى له أربعة آلاف درهم أخرى فأخذها الصيّاد وانصرف مسروراً بما أنعم الله به عليه.

الحسد يذهب بالبركة

إن أميراً من الأمراء خرج فى بلاده متنكراً ، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات ، فتعجب من ذلك ، وحدثته نفسه بأخذها ، فلما كان من الغد حلبت النصف مما حلبت بالأمس .

فقال الأمير : ما بال البقرة حلبها نقص ؟ أرعت فى غير مرعاها بالأمس ؟

قال الرجل : لا ياسيدى، ولكن أظن أن أميرنا رآها، أو وصله خبرها ، فهمّ بأخذها ، فنقص لبنها ، فإن الأمير إذا ظلم ، أو همّ بالظلم ذهبت البركة .

فتاب الأمير، وعاهد ربَّهُ أن لا يأخذ البقرة، ولا يحسد أحداً من الرعية، فلما كان الغد حلبت مثل عادتها .

الحسود لا يسود
كريستوف كولومب وحسّاده

حكى : أن (كريستوف كولومب) بعد اكتشافه أمريكا وعودته لإسبانيا احتفل به الشعب على اختلاف الطبقات ، ولم يمسك ذلك الاحتفاء ألسنة الحساد المكابرين ؛ بل انطلقت ألسنتهم بالتنديد والتعريض ، والسخرية والتسفيه ، فنمى إليه الخبر فلم يحفل به ، بل دعاهم إلى وليمة وآتى كل واحد منهم طبقاً وبيضةً وقال : الحاذق منكم من يجعل بيضته تقف على طرفها !

فحاول كل منهم ساعة من الزمن ، فلما أعجزتهم أخذ هو واحدة وضربها بقوة سريعة فانكسر طرفها فاستقامت .

فصاح الكل : إذا كان الأمر كذلك فهو هين .

فقال : ولكن سبقت إليّ الفكرة قبل أن ترد على بال أحدكم ، والفضل للمتقدم ، وهكذا كان استكشافى لأمريكا .

ربَّ ضارَّة نافعة

غرس بستانى حول مسكنه كثيراً من عقل الكرم (العنب) التى أضحت أغصانها وأوراقها تظل البيت كله وتحمل أثماراً لذيذة ، فهيجت هذه الأغصان حسد أحد جيرانه .

فأتى فى ليلة مدلهمة ، وقطع كثيراً من فروعها المدلاة خارج المنزل .

فلما رأى البستانى فى الغد أن كرمه مقطوع هكذا تكدر واغتم جدا ؛ لأنه فى ذلك الزمان كان يجهل أن تقليم الكرم مثمر — فأخذ يبكى على ما أصابه ولكن لحسن حظه حملت تلك الأغصان فى تلك السنة عنباً أجود وأكثر من السنين الماضية ، فسرَّ البستانى من هذه النتيجة غير المنتظرة ، وفكر جيداً من وقتها أن يقلّم كرمه فى كل سنة ليزيده خصباً وثمراً ، وتحقق له المثل السائر : ربَّ ضارَّة نافعة .

وأن المضرَّ الذى يفعله بنا عدوّنا يصير غالبا مفيداً لنا .

جزاء الحاسد

(سعى إلى حتفه بظلفه)

حكى أن بكر بن عبد الله المزنى قال : إن رجـــلًا كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء ستكفيه مساءته ، وكان الملك يحسن إليه .

فحسده رجل من أصحابه على مقامه ، وتمنى أن يكون مكانه فى مقاله فبغى عليه إلى الملك أشد البغى ، وسعى فى حتفه (أى فى هلاكه) أبلغ السعى ، حتى تغيّر عليه الملك .

وكان الملك لا يكتب بخط يده إلّا فى صلة أو جائزة ، فـكتب بخطه إلى بعض عماله ، لشدة حنقه (إذا وصلك كتابى هذا ، فاذبح حامله ، واسلخه واحش جلده تبناً ، وابعث به إلىّ) ودفعه إلى ذلك القائم على رأسه ، فأخذه وخرج به ، فلقيه الساعى عليه فقال له : ما هـــذا ؟ قال : خط يد الملك إلى عامله فلان ، فقال له : هبه لى بفضلك ، وأحينى به ، فإنى محتاج إليه ، وأنت غنى عنه ، فرقّ له ودفعه إليه ، فأخذه وذهب به فرحاً مسروراً حتى وصل العامل ، فلما قرأه العامل قال : أتعرف ما فى كتابك ؟ قال : صلة الأمير المعلومة من خط يده . فقال العامل : بل أمرنى فيه أن أذبحك وأحشو جلدك تبناً ، وأرسل به إليه . فقال : اتق الله فى دمى ، فإن الكتاب لم يكن لى ، فراجع

الملك فى أمرى . قال : ليس لكتاب الملك مراجعة إلّا إنفاذ الأمر ، لاسيما إذا كان بخط يده ، وأمر بإنفاذ ما فى الكتاب .

قال : وجاء الرجل على عادته ، وقام على رأس الملك ، وجعل يقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، والمسىء ستكفيه مساءته .

فلما رآه الملك قال : ما فعل الكتاب الذى كتبت لك بخط يدى ؟

قال : لقينى فلان فاستوهبه منى ، فوهبته له .

قال له الملك : إنه ذكر لى عنك كذا ، وسعى عليك بوجه كذا .

فأظهر الرجل براءته ، وتبين عنده صدقه ، وجىء بجلد الباغى محشوًّا تبناً .

فقال له الملك : صدقت ، وصدقت موعظتك ، قم كما كنت تقوم ؛ وقل كما كنت تقول ، وجزاؤه ما حلّ به . « الهجاء والمطالعة »

للمرحوم أحمد زناتى بك

فى الحقد

حقد بعض القرويين على عمدة ناحية « سفاى » بمركز أبى قرقاص بمديرية المنيا ، فماذا صنعوا له تبريداً لغلتهم ، وإطفاء لنار غيظهم ؟ عمدوا إلى خط السكة الحديدية لهذه الناحية وقطعوه ، حتى إذا مرّ عليه قطار (الإكسبريس) الذى يقوم من مصر إلى الوجه القبلى فى مساء كل يوم ، سقط وأصيب ركابه بمصائب فادحة ، فتقبض الحكومة طبعاً على العمدة ، الذى يكون أقرب إلى نقطة الحادثة ، هذا ما أرادوه وهذا ما كاد يتحقق لهم ، لولا لطف الله بعباده ، وبراعة السائق الذى أوقف القطار بسرعة متناهية ، وأبدى من ضروب الشجاعة الأدبية والجسمانية ما يستحق عليه أجمل الثناء ، وجزيل المكافأة ، وفعلًا كافأته المصلحة على ذلك .

فانظر رحمك الله إلى هذا الانتقام الغريب ؛ بل انظر إلى هذا الجنون والاختبال ، وسوء حال الرجال .

رجل يريد الانتقام من فرد حانق عليه ، فيوجه سهام انتقامه وغيظه إلى جمع كبير من الأبرياء ، الذين لاذنب لهم إلّا أن سوء الحظ أوقعهم فى ركوب القطار فى الليلة التى نضجت فيها فكرة الانتقام ، فى رأس رجل من الأشرار ، رجل يريد أن يضرب زيداً فضرب عمراً ، لأن الأخير كان مارّاً فى ساعة غيظه وحنقه .

أليس ذلك ضرباً من ضروب الجنون ؟

ماذا كانت الحكومة تفعل ، لو أن المصيبة حلّت بركاب القطار ، وكمّ عائلة كانت ترزأ فى هذا السبيل ؟

ولكن لا تنفع الحيلة ، إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة ، ولا يقع فى ملكه إلا ماأراد ، والله لطيف بالعباد .

فى الانتقام

كان النبي ﷺ فى غزاة فطلب الراحة بجانب شجرة فانفرد إليها وسيفه بجانبه ، فبصر به أعداؤه فأرسلوا من يغدر به فجاء إليه أحدهم وقال : يامحمد أرنى سيفك هذا ؟

فأراه النبي ﷺ السيف ؛ فأخذه وجعل يقلبه بين يديه وكلما همّ ليفتك برسول الله ألقى الله فى قلبه الرعب ، فرد السيف للنبي وانصرف إلى قومه .

فقالوا : لِمَ تركته حيًّا ؟ قال لهم : خفت الرجل ، وما كنت أظن أن له هذه الهيبة .

فقالوا له : لاتخفه ، ارجع إليه واسأله لتنظر شيئاً فاتك فى السيف فإذا قبضت عليه عجّل بقتله ، فأطاعهم ورجع إلى رسول الله وقال : يامحمد إنه قد فاتنى شيء ، أرنى السيف مرة أخرى ؟

فقال النبي ﷺ لأصحابه : خذوه فاضربوا عنقه .

فقال : يامحمد ما كنت أغدر بك فى الأولى حتى تخافنى فى الثانية .

فقال النبي ﷺ : والله لايتحدث النـاس بجوار الـكعبة بأنك خدعت محمداً ، اضربوا عنقه (لايلدغ مؤمن من جحر مرتين) فضُرب عنقه ، وصار قول الرسول مثلًا .

لاتنتقم لنفسك
واترك الأمر لله المنتقم الجبار

تشاجر رجل غنىّ مع فاعل فقير ، ومن شدة غيظه ، رشقه بحجر فالتقطه الفقير ووضعه فى جيبه وقال : سيأتى يوم يمكننى فيه أن أرد هـــذا الحجر على رأس عدوِّى .

ونظراً لسوء سلوك الغنى وعدم استقامته وإسرافه ذهبت ثروته وأصيب بالفقر حتى اضطر إلى استجداء الناس ، فمرَّ يوماً أمام هذا الفاعل الفقير .

فلما نظر إليه الفقير أخذ يبحث على الحجر ليرشقه به كما رشقه ولـكنه فـكّر فجأة وقال : لا أنتقم لنفسى من عدوّى ؛ بل أترك أمره إلى المنتقم الجبار

ولا يليق بالإنسان الانتقام ، لأنه ضرب من التوحش ، بل يلزمه الصبر لينال الثواب والأجر ، ويحميه الله بقوته من شر الغدر .

لطف الاعتذار ينجي من الانتقام

ملك الفرس وصاحب المطبخ

كان ملك من ملوك الفرس ، عظيم المملكة ، شديد النقمة ، وكان له صاحب مطبخ .

فلما قرب إليه طعامه صاحب المطبخ ، سقطت نقطة من الطعام على يديه فغير لها الملك وجهه ، وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله . فكفأ الصفحة على رأسه فقال الملك : عليّ به ؛ فلما أتاه قال له : قد علمت أن سقوط النقطة أخطأت فيها يدك ، فما عذرك فى الثانية ؟ قال : استحييت للملك أن يقتل مثلى فى شىء تافه ، بعد خدمتى ، وقديم حرمتى ، فى نقطة فأردت أن أعظم ذنبي ، ليحسن به قتلى ، ولئلا ينسبك الناس إلى الظلم والجور .

فقال له الملك : إن لطف الاعتذار ، ينجي من القتل ، فأنت حرّ لوجه الله .

العقد الفريد

(لابن عبد ربه)

حكايات وأمثلة فى الظلم

ظلم أحمد بن طولون

لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاثت الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة (رضى الله عنها) وشكوه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟

فقالوا: فى الغد.

فكتبت رقعة، ووقفت فى طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون.

فلما رآها عرفها، وترجّل عن فرسه، وأخذ الرقعة منها، وقرأها، فإذا فيها مكتوب:

ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعققتم، ودرّت عليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة، ولاسيما فى قلوب أجعتموها، وأجساد عريتموها، فعدل من ساعته.

المغتصب الظالم

اغتصب بعض الأغنياء حقلًا وحيداً لامرأة فقيرة كان بجوار حديقة له، فأدخله فيها، وخرج هذا الغاصب ذات يوم يتنزه فى حديقته، فدخلت عليه المرأة المسكينة، وهى تحمل كيساً فارغاً، فحيته وقالت له:

والدمع ملء عينيها : قد أتيتك يا مولاى راجية منك أن تمنحني إحساناً ، وهو أن تأذن لى بأخذ ما يملأ هذا الـكيس تراباً من أرض أبى .

فأجابها الرجل بالإيجاب ، وبعد أن ملأت المرأة كيسها قالت له :

هل يسمح لى سيدى بأن يعيننى على حمل الـكيس على ظهرى ؟

فأبى ، بدعوى أنه لم يتعود على مثل ذلك .

فأخذت المرأة تتوسل لديه إلحافاً ، حتى رضى ، ولـكنه مع ذلك لم يقدر أن يرفعه قدر شعرة من الأرض ، وقال وهو يلهث : مستحيل أن أقدر على ذلك أيتها المرأة .

فقالت له بصوت يتهدج بالأسف والحزن : إن كان هذا الـكيس المملوء بالتراب يظهر لك ثقيلًا إلى هذا الحد ، فـكيف تستطيع أيها الظالم أن تحمل هذه الأرض التى اغتصبتها منى ، وهى تمـلأ ألوف أضعاف هذا الـكيس ، وأنشد قول الشاعر :

« يا أيهـا الظالم فى فعله　　الظلم مردود على من ظلم »
« إلى متى أنت وحتى متى　　تضر المصاب وتنسى النقم؟ »

كيف حالك ، يوم لا ينفعك شفاعة ولا مال ولا بنون ، والأمر يومئذ لله ؟ فى يوم يأخذ الله المظلوم من الظالم حقه ، يوم يجازى الله النـاس على قدر أعمالهم ، فمن يعمـل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

« غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا »
« إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا »

كيف تجيب إذا سألك الله بأى حق اغتصبت حقوق الفقراء ؟ وبأية شريعة أخذت أموال الناس بالباطل أيها المغرور بنفسك .

فأثر هذا الكلام فى قلب الرجل حتى فاضت عيناه من الدمع وبادر بإرجاع الحقل إلى صاحبته ، وتندم على ما فرط منه ، وتاب للخالق توبة نصوحاً ، وتذكر قول القائل :

« لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يأتيك بالندم »
« نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم »

الموعظة الحسنة

خرج ملك ظالم مع وزيره لاستنشاق الهواء ، فسمعا صوت (بومة) تكلم أخرى ، فسأل الملك وزيره عن غرضها ؟

فقال له : أيها الملك الجليل ، إنها تطلب صداقها من زوجها ، ومقدره أربعمائة قرية خربة .

فقال لها : إن دام حكم هذا الحاكم أعطيتك ثمانمائة قرية خربة .

فاتعظ الملك بهذا الكلام ، وعدل عن ظلمه ، فعمرت البلاد ، وحسنت الأحوال ، واستقامت الأمور ، فإن العدل أساس الملك وبه رقى الأمم ، والبغى يصرع أهله ، والظلم مرتعه وخيم . (ثمار الإنشاء)

مثال الاستبداد

اتصف أحد الملوك بالطائف بالظلم والاستبداد برعيته ، فمرّ بامرأة ترضع صبيًّا يتيماً بلبن عنز لها ، فأخذها منها ، وكانت سنة مجدبة ، فبقى الصبى بلا مرضعة ، فمات ضحية استبداد هذا الملك، وشكت المرأة أمرها لله فرمى الله هذا الملك بقارعة ، فأهلكته ، فرجمت العرب قبره جزاء وفاقاً .

الملك المستبد المتشائم

كان أحد الملوك يتشاءم من يومه ، لو رأى فى الصباح رجلًا فى طريقه تدعو هيئته إلى الاشمئزاز ، فخرج فى صبيحة يوم من قصره إلى الصيد فرأى أعرابياً بائساً رث الهيئة ، دميم الخلقة .

فقال لأتباعه : اقبضوا على هذا الرجل فإنه شؤم ، فأخذوا الرجل وحبسوه ريثما يعود الملك من صيده .

فلما عاد فى آخر النهار بصيد كثير أمر بإطلاق سراح الأعرابى، لأن يومه كان يوم رخاء وسرور ومتعة .

فلما أطلق الرجل ، وكان قد علم بما قال الملك ، قال : دعونى أكلمه .

فلما حضر بين يديه قال : أيها الملك أتأذن لى بالكلام ولا بأس علىّ ؟

فقال الملك : قل ياأعرابى ما شئت .

فقال الرجل : لقيتني في طريقك في الصباح فتشاءمت مني ، وخرجت إلى الصيد فعدت في آخر النهار رابحاً مسروراً، وأنا لقيتك في طريق فضربت من غـــير ما ذنب جنيت ، وحبست طول النهار ظلماً ، فأينا كان شؤماً على الآخر ؟

فضحك الملك وقال : صدقت يا أعرابي ، وأمر له بجائزة ترضيه فانطلق وقد تحول بؤسه إلى رخاء .

الرشيد والعابد

حج الرشيد ، فبلغه عن عابد بمكة مجاب الدعوة ، معتزل في جبال تهامة ، فأتاه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : أوصني ومُرني بمـا شئت ، فوالله لا عصيتك . فسكت العابد عنه ، ولم يرد عليه جواباً ، فخرج عنـــه هارون الرشيد .

فقال للعابد أصحابه : ما منعك إذ سألك أن تأمره بما شئت ، وحلف أن لا يعصيك أن تأمره بتقوى الله وإحسانه إلى رعيته .

فخط لهم في الرمل ، إني أعظمت الله أن يكون يأمره ، فيعصيه ، فآمره أنا فيطيعني .

الفضل بن مروان وأبو فراس الشاعر

كان الفضل بن مروان وزير المعتصم ظالماً غشوماً ، متبجحاً بالظلم متجبراً متكبراً .

وكان المعتصم يقول : الفضل بن مروان أسخط الله وأرضاني فسلطني الله عليه .

دخل عليه الهيثم بن فراس الشاعر ، متظلماً من بعض عماله ، فصرف وجهه عنه ، ولوى عطفه ، فخرج من عنده وهو ينشد :

تجبرت يا فضل بن مروان فانتظر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم التغيير والموت والقتل
فإن تك قد أصبحت فى الناس ظالماً ... ستودى كما أودى الثلاثة من قبل

فلما سمع الفضل أبياته قال : ما الذى عنى بقوله ؟

فقيل : إنه أراد الفضل بن يحيى ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع فتغير وجهه ، ولم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى قبض عليه

الجزاء من جنس العمل

كان أحد الأطفال سائراً في طريق ومعه خبز يأكله ، وبينما هو كذلك رأى كلباً نائماً ، فدعاه وأظهر له الخبز ؛ فلما دنا وقرب منه ضربه بعصا على رأسه ، ففرّ يعوى من شدة الألم !

وكان أحد أصحاب الدكاكين يراقبه ، فساءه هذا العمل ، فأخذ عصا ووقف بباب الدكان ، ودعا الصبيّ وأبرز له قرشاً ، ولما مدّ يده ليأخذه ضربه على يده ، فصرخ صراخاً شديداً .

وقال : لِمَ تضربني وأنا لم أطلب منك شيئاً ؟

فقال له : ولِمَ تضرب الكلب ، وهو لم يطلب منك شيئاً ، فإذا شئت أن لاتؤذى فلا تؤذ غيرك ؛ فجزاء سيئة سيئة مثلها .

الشر بالشر والبادى أظلم

كان ولد ينظر إلى الفيل في جنينة الحيوانات ، فمد يده إليه بتفاحة ، ولما همّ الفيل أن يأخذها قبض الصبي يده حتى لايصل الفيل إلى التفاحة ، ثم عاد ومدّ يده بالتفاحة مرةً ثانيةً ، وعمل كما عمل أول مرة ، فغضب الفيل وصبر على الصبي حتى سها عنه ، ومدّ خرطومه وخطف طربوشه ، فزعق الولد وبكى ، فمدّ الفيل خرطومه بالطربوش ، ولما همّ الولد أن يأخذه قبض خرطومه ، وعمل معه كما عمل هو مع الفيل ، فضحك الناس كثيراً منه وبكى الولد على ضياع طربوشه ، وعلم أن الذى يفعل الشر يلقى الشر .

(القراءة الرشيدة)
(جزء أول)

من حفر حفرةً لأخيه وقع فيها

يضرب مثلًا للظلم ترجع عاقبته على صاحبه ، ويقال أيضاً : كالباحث على حتفه بظلفه ، ويقال أيضاً : كالعنز تبحث عن المدية ، وقصتها :

أن عنزاً كانت لقوم فأرادوا ذبحها ، فلم يجدوا شفرة ، فنبشت الأرض بظلفها فاستخرجت شفرة ، فذبحوها وقالوا : بحثت عن حتفها بظلفها ، فصارت مثلًا .

وقال الشاعر الحكيم فى هذا المعنى :

« قضى الله أن البغى يقتل أهله وأن على الباغى تدور الدوائر »

« ومن يحتفر بئراً ليوقع غيره سيدفع فى البئر الذى هو حافر »

المتظلم من خصمه (الفقر)

بينما عبد الله بن جعفر راكب إذ تعرض له رجل فى الطريق فأمسك بعنان فرسه وقال : سألتك بالله أيها الأمير أن تضرب عنقى ، قال : أمعتوه أنت ؟

قال : ورأس الأمير . قال : فما الخبر ؟

قال : لى خصم ألد ، قد لزمنى وألحّ وضيّق علىّ ، وليس لى به طاقة .

قال : ومن خصمك ؟ قال : الفقر .

فالتفت عبد الله لِفَتَاه وقال : ادفع له ألف دينار .

ثم قال له : يا أخا العرب خذها ونحن سائرون ، ولكن إذا عاد إليك خصمك متنشماً ، فائتنا متظلماً ، فإنا منصفوك منه إن شاء الله .

فقال الأعرابى : إن معى من قولك ما أدحض به حجة خصمى بقية عمرى ، ثم أخذ المال وانصرف .

(مجانى الأدب ص ٢١٥ ـ ج ٢)

من ذاق طعم الظلم لا يظلم

روى أن (كسرى أنو شروان) كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق فى العلوم ، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب ، فأوجعه فحقد أنو شروان عليه .

فلما ولى الملك أمر بإحضار مؤدبه ، فجاء فرحاً مسروراً ، فقال المعلم : ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلماً ؟

فقال له : لما رأيتك ترغب فى العلم ، رجوت لك الملك بعد أبيك ، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم ، فإن الظلم أضر الأشياء بالملك .

فشكر له عمله ، ورفع منزلته وشأنه .

متى حل الظلم بأرض زالت البركة منها

خرج كسرى أنو شروان إلى الصيد يوماً ، واعتزل عسكره ، فعطش فرأى ضيعة قريبة منه ، فقصدها حتى وقف على باب دار قوم وطلب منهم الماء ليشرب ، فخرجت فتاة ، فلما رأته عادت إلى البيت مسرعة ، فدقت قصبة سكر ومزجتها بماء ، وخرجت به فى قدح إليه ، فنظر القدح ، فرأى فيه شراباً وقذى ، فشرب منه شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى إلى آخره ثم قال : نعم الماء لولا ما فيه من القذى ، فقالت له الفتاة : أنا ألقيته عمداً . فقال لها : ولِمَ فعلت ذلك ؟ فقالت : لما رأيتك شديد العطش خشيت أن تشربه مرة واحدة فيضر بك شربه ، فعجب كسرى من ذكائها وفطنتها ، وقال : كم عصرت فيه من قصبة ؟ فقالت : عصرت فيه قصبة واحدة ، فعجب من ذلك فلما مضى طلب اسم المكان وقد كان نسيه ، فرأى خراجه قليلاً ، فحدث نفسه أن يزيد فى خراجه ، وبعد حين مرّ بذلك المكان منفرداً ووقف على ذلك الباب ، وطلب الماء ليشرب ، فخرجت له الفتاة عينها ، ورأته فعرفته ، وعادت مسرعة لتمزج له الماء فأبطأت عليه .

فلما خرجت إليه قال لها : قد أبطأت . فقالت له : لم تمزج حاجتك من قصبة واحدة ؛ بل من ثلاث قصبات . فقال : وما سبب ذلك ؟ فقالت :

من تغير نية الحاكم ، فقد سمعنا أنه إذا تغيرت نيـــة السلطان على قوم زالت بركاتهم وقلّت خيراتهم .

فضحك أنو شروان ، وأزال عن نفسه ما كان قد أضمره لهم من زيادة الخراج ، ثم تزوج بتلك الفتاة لعجبه من فصاحتها وذكائها .

الشكوى من الظالم

ابن حمران وأبو الفضل الجوهرى

لما هجم (ابن حمران) على مصر فى أيام المستنصر بالله ، وأحرق داره بالزيت ، وتخطف عسكره اجتمع الناس إلى (أبى الفضل الجوهرى) الواعظ فشكوا حالهم إليه فكتب إلى المستنصر :

إن كنت خالقاً ، فارحم خلقك ، وإن كنت مخـــلوقاً ، فخف خالقك والسلام .

فرفع الظلم عنهم .

فكاهة

الحجاج والأعرابى

انفرد الحجاج يوماً عن عسكره فلقى أعرابيّا فقال له : يا أخا العرب كيف الحجاج ؟

فقال : ظالم غاشم .

قال : هلا شكوته إلي عبد الملك بن مروان ؟

قال : أظلم وأغشم ، عليهما لعنة الله .

فبينما هو كذلك إذا تلاحقت به عساكره ، فعلم الأعرابى أنه الحجاج ، فقال الأعرابى: أيها الأمير، السرّ الذى بينى وبينك لاتطلع عليه أحداً إلا الله.

فتبسم الحجاج ، وأحسن إليه وانصرف .

فكاهة أخرى

الحجاج وآكل الحلوى

حضر أعرابى عند الحجاج ، فقدم الطعام فأكل الناس منه ، ثم قدمت الحلوى ، فترك الحجاج الأعرابى حتى أكل منها لقمة ، ثم قال : من أكل من الحلوى ضربت عنقه .

فامتنع الناس من أكلها ، وبقى الأعرابى ينظر إلى الحجاج مرةً ، وإلى الحلوى مرة ، ثم قال : أيها الأمير أوصيك بأولادى خيراً ثم اندفع يأكل .

فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وأمر له بصلة .

حكايات وأمثال فى ذم الخيانة

جزاء الخائن

استأجر أحـــد التجار جمالًا ليحمل له بضاعة نفيسة من الحرير والديباج اشتراها من (حلب) ليتجر بها فى (اسلامبول) ، واتفق معه على أجر معلوم وسار الركب يقطع الطريق آمناً مطمئناً ، وبعد مسيرة أيام قليلة أُصيب التاجر بمرض شديد اضطره إلى التخلف عن الركب، والنزول فى أقرب قرية يتمرض فيهـا حتى يبل (يشفى) فوصى الجمال بمتاعه وأذن له بمتابعة السير على الطائر الميمون ، وانتظاره فى (اسلامبول) إلى أن يلحق به .

وما كاد الجمـــال يبلغ ذلك المكان القصى ، حتى وسوس الشيطان فى صدره ، وسوّلت له النفس الأمّارة بالسوء أن يخفر ذمته وينقض عهده ، ويخون من ائتمنه ، فباع البضاعة بثمن بخس ، وغير اسمه ولبوسه ، وادعى أنه تاجر ليدلس على الناس ، ولكيلا يهتدى التاجر إليه متى حضر ، وجدّ فى البحث عنه .

ولمـــا قدم التاجر إلى المدينة طلب الرجل ، فلم يقف له على خبر ، فطفق يطوف على أنحائها لعله يقع به بالمصادفة ، فرآه فى الطريق متنكراً مستخفياً فى زى التجار ، فأمسك بتلابيبه ، واستصرخ واستغاث فأقبـــل

رجال الشُّرَط وساقوها إلى القاضى ، وهناك قص التاجر قصته ، فأنكرها الجمال وقال :

إنها فرية كاذب محتال ، يريد أن يسلب ما معه من المال ، ولم يكن لدى التاجر المسروقة بضاعته بينة يقيم بها حجته على غريمه .

ولكن القاضى كان ذكيًّا ، فأدرك فى خلال الحديث أن التهمة صحيحة ، فصمم على أن يسير المسألة بالحيلة والدهاء ، فأمر الرجلين بالانصراف من أمامه حتى إذا ما بعدا عنه قيد قصبة ، صاح عليهما : ياجمّال ؟

فالتفت ذلك الخؤون المتنكر ، وقال : مهيم (أى نعم) .

فقامت عليه تلك الحجة البالغة ، وأجبر على رد المال لصاحبه ؛ ونال شديد العقاب ، جزاء ما اقترف من الخيانة والعدوان .

كيف يكون إصلاح الخائن ؟

استودع تاجر بالكوفة رجلًا من أهلها مالًا جزيلًا وتوجه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، فلما عاد طالب الرجل بماله . فأنكره ، وجعل يحلف له ، فانطلق التاجر إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وأخبره بذلك ، فقال له الإمام : لاتكلم أحداً بجحوده .

وكان عرف الرجل من جلسائه ، فقال له ، وقد خلا لهما المكان : إن القوم مشوا يستشيرونى فيمن يصلح للقضاء ، وقد اخترتك لهذا المنصب الرفيع .

ولما انصرف الرجل جاء صاحب الوديعة فقال له الإمام :

ارجع إلى صاحبك ، وذكره لاحتمال أن يكون ناسياً ، فرجع إليه ، فما احتاج معه إلى إشارة ، بل دفع إليه ماله .

ثم توجه الرجل إلى أبى حنيفة يذكره بوعده .

فقال له الإمام : إنى نظرت فى أمرك ، فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك، حتى يحضر ما هو أنفس من هذا .

نتيجة الغش

يحكى أن شخصاً كان له بقرة ، وكان يخلط لبنها بالمـــاء ويبيعه ، فجاء السيل فى واد وهى واقفة ترعى فأغرقها ، فصار صاحبها يبكى عليها .

فقال له أولاده : ياأبانا لا تحزن ، فإن الميـــاه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فأغرقتها .

وهذا نتيجة غشنا ؛ لأن من يأخذ شيئاً قليلاً بغير حق ، يضيـــع الله عليه شيئاً من نعمه .

اؤتمن نخان؛ فكان جزاؤه الذل والهوان

حكى أن رجلاً قدم بغداد قاصداً الحج . وكان معه عقد يساوى ألف دينار أراد بيعه ، فلم يجد من يشتريه ، فوضعه أمانة عند تاجر مشهور بالصلاح ؛ ثم حج ورجع بهدية للتاجر ، وسلّم عليه ، فقال التاجر : من أنت ؟ فقال : أنا صاحب العقد الذى أودعته أمانة عندك .

فقال التاجر : أنا لا أعرفك ، وليس لك عندى عقد ، ثم طرده من دكانه، فذهب الرجل إلى (عضد الدولة) وهو أمير تلك الجهة يومئذ ، وقصّ عليه خبره ، فقال : اذهب واجلس عندالتاجر ، وحينما أمرّ عليك وأقرئك السلام ، رُدَّ علىّ السلام وأنت جالس .

ولما مرّ عضد الدوله بموكبه قال : السلام عليك .

قال الرجل : عليك السلام ، ولم يتحرك .

فقال الأمير : يا أخى ، أتقدم من العراق ولا تحضر عندنا ؟

قال الرجل : لم يتفق ، فذهل التاجر ، ولما انصرف الأمير ، قال التاجر للحاج : ماصفة عقدك ؟ قال : كذا وكذا .

فقام التاجر وأحضر له العقد واعتذر بالنسيان .

فأخبر الحاج عضد الدولة بما حصل ، فأمر بصلب التاجر أمام باب دكانه جزاء خيانته ، فصلب ومات ، ولسان الحق يقول :

« أدّ الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطيب المكسب »
« واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب »

اللص الصغير

حكى أن أحد الناس ضرب ولداً له لاختلاسه شيئاً من أحد إخوانه فقال الولد لوالده وهو يبكي : أنا أخذت شيئاً زهيداً وأنت يا أبت تعاقبني عقاب شيء كبير !

فقال له أبوه : ألم تعلم أنك إذا لم تعاقب من الآن تنمو على ما أنت عليه من العيب الذميم ، ويصعب علينا بعدئذ إصلاحك من علتك ؟ كما قال الشاعر :

« صغير السن في التأديب يرجى ولا يرجى لتأديب الكبير »

ألم تدر أن اللصوص ، وقطاع الطريق ، وسفاكي الدماء ، كانوا هكذا مثلك ، ولم يعاقبهم أولياء أمورهم ، فشبوا على ذلك ؟

وقد قيل : من شبَّ على شيء شاب عليه ، وقال الله تعالى :
﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ .
فلما سمع الولد كلام والده استقام وكان من المهتدين .

حكايات فى ذم البخل

سوء عاقبة البخل

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : لم أر أشق بماله من البخيل ؛ لأنه مهتم فى الدنيا بجمعه ، غير آمن فى الدنيا من همه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمه ، عيشه فى الدنيا عيش الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء .

ويحكى : أنه دخل رضى الله عنه على عبد الله بن الأهتم يعوده فى مرضه فرآه يصعد ببصره ويصوبه إلى صندوق فى زاوية من بيته ، ثم التفت إليه وقال :

يا أبا سعيد ، ما تقول فى مائة ألف فى هذا الصندوق لم أؤد عنها زكاة ولم أصل منها رحماً ؟

قال رضى الله عنه : ثكلتك أمك ، ولمن كنت تجمعها ؟

قال : لصروف الزمان ، وطوارئ الحدثان ، وجفوة السلطان ، ومكاثرة العشيرة ثم مات فشهد الحسن رضى الله عنه جنازته .

فلما فرغ من دفنه ضرب بيده على القبر وقال إلى وارثه : أيها الوارث ، لا تُخدعنّ كما خدع صاحبك بالأمس ، أتاك هذا المال حلالًا فلا يكونن عليك وبالًا ، أتاك عفواً صفواً ، فمن كان جموعاً منوعاً ، من باطل جمعه ومن حق منعه ، قطع به لجج البحار ، ومفاوز القفار، لم تكدح لك فيه يمين ،

ولم يعرق لك فيه جبين ، إن يوم القيامة ذو حسرات ، وإن من أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك فى ميزان غيرك ، فيالها من عثرة لا تقال ، وتوبة لا تنال ، ولله در من قال :

« وما ضاع مال ورث الحمد أهله　　ولكن أموال البخيل تضيع »

وصف حالة البخيل

يا حارم النفس لجمع مال　　تفنيه ورّاث من الجهال
أيجمع المال امرؤ يموت ؟　　وما له فى المال إلا القوت
إن قلت إنى جامع للخلف　　كم خلف يقبر قبل السلف
أو قلت أخشى من صروف الفقر　　من ذا الذى يأمن شر الدهر ؟
ما أقطع الآجال للآمال　　وأسرع الآمال فى الآجال
قد كتب الله على الحريص　　أن يترك الأموال للصوص
يعيش بالتقتير فى دنياه　　وعن غنى يسأل فى أخراه
ما ضرّ من يبخل بالموجود　　أن يشترى الحمد ببذل الجود
فتلك حقاً حالة البخيل　　فى ماله الكثير والقليل
يدفع خيره ويجلب ضيره　　مال البخيل دائماً لغيره

(آداب العرب)

أموال الحريص غنيمة للصوص

اتفق لغنى بخيل أنه توجه ذات ليلة إلى ضيعة له. فانتهز خدمه ، الذين ضاقوا ذرعاً من سوء معاملته ، فرصة غيابه واحتالوا فى فتح خزانته وسلبوا ما فيها من الحلى والنقود ، واقتسموه بينهم ، وأعادوا الخزانة إلى حالتها .

فلما عاد وفتحها وجدها خالية ، فأخذ يفكر فى الفاعل فلم يجد سوى الخدم فأراد استمالتهم لإعادة المال فلم يفلح ، فهددهم بالحبس والقتل فلم يجد من يعترف فرفع أمره إلى القضاء وليس لديه من شاهد فلم تثبت عليهم الجناية .

ولما شكا حاله إلى أحد إخوانه العقلاء قال له : حقًّا لقد أساء إليك هؤلاء الخدم الجهال ؛ ولكن الأجهل منهم هو الذى يخزن ماله ، ويحرم نفسه وعياله .

ولقد أصاب من قال :

« قد كتب الله على الحريص   أن يترك الأموال للصوص »

الإيثار

مثال من إيثار سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه

حصل لعلى بن أبى طالب ولأهله جوع فأخذ من يهودى صوفاً لتغزله السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها بثلاثة آصع من شعير ، فغزلت أول يوم شيئاً منه وطحنت صاعاً وخبزته ؛ فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين ، وقال : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئاً لله ، فدفعوا إليه الأقراص .

وفى اليوم الثانى، جاءهم يتيم وقال: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة أنا يتيم من أيتام أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئاً لله ، فدفعوا إليه الأقراص .

وفى اليوم الثالث ، جاءهم أسير وقال : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة أنا أسير من أسرى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئاً لله ، فدفعوا إليه الأقراص .

وباتوا على الماء ، فجاع الحسن والحسين رضى الله عنهما جوعاً شديداً فخرج علىّ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك، فطاف على نسائه فلم يجد شيئاً ،

ثم جاء أبو بكر يشتكى الجوع فقيل : يا رسول إن (المقداد بن الأسود) عنده تمر ، فخرجوا إليه فلم يجدوا شيئاً .

فقال النبي ﷺ لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه : خذ هذه السلة واذهب إلى تلك النخلة وقل لها : إن محمداً يقول لك ، أطعمينا من تمرك ، فرمت عليهم رطباً بإذن الله تعالى ، فأكلوا حتى شبعوا وأرسلوا إلى فاطمة وولديها مايشبعهم فأنزل الله تعالى فى حق علىّ وأهله :

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً »

« نزهة المجالس »

مثال آخر

دخل ضيف على رجل من أصحاب النبي ﷺ ، ولم يكن عنده إلا طعامه فأطفأ سراجه وقدم طعامه للضيف حتى لا يحتشم من الأكل فأكل الضيف طعامه ، وبات هو طاوياً .

اسق أخاك النمرى

خرج (كعب بن أمامة الإيادى) فى ركب معهم رجل من بنى النمر بن قاسط ، وكان ذلك فى صميم الصيف ، واشتداد حرارة القيظ فضلوا الطريق وقلّ ماؤهم ، فاضطروا أن يتصافنوا الماء ، أى يقتسموه بالحصص وذلك بأن يطرح فى أسفل القعب (القدح أو الإناء) حصاة ، ويصب فيه من المـاء بقدر ما يغمر الحصاة ، فيشرب كل واحد قدر ما يشرب الآخر .

ولما نزلوا للشرب، ودار القعب بينهم ، وانتهى إلى (كعب بن مامة) نظر فرأى الرجل النمرى، يحدد النظر إليه، فآثره بحصته من الماء وقال للساقى اسق أخاك النمرى ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر وتصافنوا بقية الماء ، ونظر النمرى إلى كعب كنظرته أمس ، وقال كعب للساقى ما قاله أمس .

ثم ارتحلوا وقالوا : يا كعب ارتحل ، فلم يقو على النهوض من شدة فعل العطش به ، وكانوا قد قربوا من المساء فقالوا له : (رد يا كعب إنك وارد) فعجز عن الجواب؛ ولما يئسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ، فمات رحمه الله وذهب قوله : (اسق أخاك النمرى) مثلًا فى تضحية الإنسان بنفسه ، وإيثار غيره عليه ، أى تفضيل غيره عليه .

مثال آخر

قال حذيفة العدوى : انطلقت يوم (اليرموك) أطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ، فأشار ابن عمى أن انطلق بالماء إليه .

قال : فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ، فأشار هشام ، أن انطلق به إليه ، فجئته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات ، رحمة الله عليهم أجمعين .

مثال آخر

قيل : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم فيه غلام أسود يعمل به ، فإذا أتى الغلام بقوته دخل الحائط كلب ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثانى والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه :

فقال : يا غلام ، كم قوتك كل يوم ؟

قال : ما رأيت .

قال: فلمَ آثرت به هذا الـكلب ؟

قال : ما هى بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائماً فـكرهت أن أشبع وهو جائع .

مثال آخر

من عجائب ما ذكر فى الإيثار ما حكاه أبو محمد الأزدى ، قال : لما احترق المسجد (بمرو) ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ، فأحرقوا خاناتهم .

فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها : القطع ، والجلد ، والقتل ، ونثرها عليهم ، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما هو مكتوب فيها ، فوقعت رقعة فيهـــا القتل بيد رجل ، فقال : والله ما كنت أبالى بالقتل ، لولا أم لى ، وكان بجانبه أحد الفتيان ، فقال له : فى رقعتى الجلد ، وليس لى أم ، فخذ أنت رقعتى ، وأعطنى رقعتك ، ففعل فقتل ذلك الفتى ـ الذى آثر الرجل على نفسه ـ وتخلص هـــذا الرجل من القتل (الطرطوشى)

مثال آخر

يروى عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن ابن أختها عبد الله ابن الزبير أرسل إليها ثمانين ألف درهم ، وكانت يومئذ صائمة فقسمتها بين الناس ، وأمست وما عندها من جميع ذلك درهم واحد .

فلما أرادت الإفطار قالت لجاريتها : هلمي فطريني ، فجاءتها بخبز وزيت وقالت لها : ياسيدتي أما استطعت أن تشتري لإفطارك لحماً بدرهم ؟

ويروى عنها أيضاً : أنها تصدقت مرة بسبعين ألف درهم أرسلها إليها عبد الله بن الزبير ، وكان ثوبها مرقعاً ، فلم تشتر منها ثوباً واحداً .

وهذا فعل يعجز الإنسان عنه ، وهذا منتهى الإيثار ، وفعائل الكرام الأحرار .

حكايات فى فضل المروءة

مروءة حاتم الطائى

حكى عن حاتم الطائى : أنه مرَّ يوماً بحلة بنى عنز فاجتاز بأسير عنـــدهم وكان الأسير لا يملك الفداء ؛ فلما رأى حاتماً صاح قائلًا : أغثنى يا (أبا سفانة) ولم يكن مع حاتم ما يفديه ، فضمن الفداء لأمير الحلة ، فأبى إلا أن يقبضه قبل إطلاق الأسير .

فأقام حاتم مكانه فى الأسر ، وأرسل الأعرابى إلى قومه فى أحياء على بعلامة منه حتى أتى بالفداء، فدفعه إلى القوم وأطلق نفسه من أسرهم .

المروءة لا تقدر بمال

طغى نهر وكاد يكتسح بيتاً صغيراً تسكنه امرأة فقيرة وأولادها ، فتبرع غنى بمائة دينار لمن ينقذ هذه المرأة وأولادها ، فأخـــذ جندى قارباً واقتحم الخطر وبعـــد برهة رجع ومعه المرأة ومن معها ، فأعطاه الغنى المكافأة فأبى أخذها قائلًا : لاأبيع مروءتى بمال ، أعطه لهؤلاء الجماعة فإنها فى حاجة إليه .

مروءة كريم

قصد أحدهم صديقاً فدق عليه الباب ، فلما خرج قال :

ماحاجتك ؟ قال : أربعمائة درهم علىّ دين .

فدخل الدار وأخرجها إليـــه ، ثم دخل الدار باكياً ؛ فقالت له امرأته : هلا تعللت حين شقت عليك الإجابة ؟

قال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حالة صديقى حتى احتاج إلى مكاشفتى .

مثال المروءة

حكى أن جندياً وجد فى طريقه صبيًّا يبكى وينتحب فسأله : ما بك يا ولدى ولمَ تبكى ؟

فأجابه الصبي : أنا تعيس ياسيدى !

فقال له : ماذا جرى لك يا ولدى ولمَ أنت تعيس ؟

فقال له : قضى الله علىّ بالشقاء واليتم ؛ لأنى فقدت أمى وأبى منذ يومين .

فقال له الجندى : أنت تكذب ياصبى .

فقال : لا يامولاى ، سل شيخ قريتنا ينبئك بالحقيقة .

فأخذه الجندى من يده وسار به إلى فندق قريب وقال لصاحبه : احتفظ

بهذا الصبي حتى آتيك على عجل ، وانطلق إلى مكان البريد وكتب إلى شيخ قرية الصبي يسأله عن حقيقة حاله .

فأجابه : أن الغلام أخبره بالصدق ، وأنه حقيقة صار يتيماً ، وقال له فى آخر خطابه : أرسله لنا لعلّ الله يحنن عليه بعض قلوب أهل الإحسان ليعتنى به ، فرد عليه الجندى : لا ياحضرة الشيخ ، فإنى سأتخذه ولداً ، وسأكون له أباً حنوناً .

ثم رجع إلى الفندق وأخذ الصبي وأدخله مدرسة بالمدينة ، وأنقد رئيسها المصاريف المدرسية السنوية وقال له : اعتن بتربية هـذا الصبي فهو ولدى ، وانصرف بعد أن أوصاه خيراً به ، وصار يواليه من وقت لآخر حتى انتهت مدة دراسته ونال الشهادة الأولى ، فنقله الجندى إلى المدرسة الحربيـة ، فلم تمض عشر سنين على الصبي الذكى حتى كان فى مقدمة الجيش الفرنسى وصار جندياً عظيماً ، فجزى الله الجندى على مروءته خيراً ، وهكذا تكون المروءة الخالصة لوجه الله .

جزاء المروءة

سقط القائد (فديرال) يوم اشتدت نيران الحرب فى (فرجينيا) أمام صفوف الأعداء مثخناً بالجراح ، مخضباً بالدماء ، يصرخ مستسقياً لجرعة ماء ، فعطف عليه جندى من عسكر الأعداء اسمه (حميس مور) من ولاية (يورك) شمال (كارولينا) وأتاه بالماء ونيران المدافع وكراتها تتساقط كالأمطار الغزيرة من الفريقين ، فأخـذ أصحاب (حميس) يحذرونه من الخطر ، ويروعونه من أن يلق بيده إلى التهلـكة ؛ فلم يلتفت إليهم وظل يسرع إلى عدوّه فى معمعة الموت الأحمر حتى بلغ إليه وكأس الماء فى يده فسقاه .

وكان مع ذلك القائد الصريع ساعة ذهبية فقدمها للجندى ، فأبى أخذها فسأله القائد عن اسمه ، فقال : إنه (حميس مور) ثم رجع إلى مركزه ولم ير أحدهما الآخر بعد ذلك .

ثم خرج (حميس مور) وفقد بعض أعضائه فى إحـدى وقائع (فرجينيا) فرجع إلى بيته فى ولاية (يورك) ثم مضى عليـه سنين عديدة ؛ وفى هذه المدة بلغه خبر عن القائد (فديرال) الذى سقاه الماء فى ساحة الحرب أنه وهب له عشرة آلاف ليرة جزاء مروءته يتقاضاها مدة أربع سنوات أى يعطى كل سنة ألفا وخمسمائة ليرة .

محيي الموءودة

هو صعصعة بن ناجية جد الفرزدق . وسمى بذلك لأنه مرّ برجل من قومه يحفر بئراً وامرأته تبكى فقال لهـا : علامَ تبكين ؟ فقالت : يريد أن يئد ابنتى هذه (أى يدفنها فى التراب وهى حيّة) .

فقال له : لِمَ تفعل ذلك ؟ قال : لفقرى . فقال : إنى اشتريتها منك بناقتىّ هاتين يتبعهما أولادها ، فتعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصبية .

فقال : قد فعلت ، فأعطاه الناقتين وجملا كان تحتـه ، وقال فى نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقنى لها أحد من العرب .

فجعل على نفسه ألّا يسمع بموءودة إلا فداها .

فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة وقيل أربعمائة .

وقال فيه الفرزدق مفتخراً بمروءته :

« وجَدى الذى منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد »

الإحسان والصدقة

مثال

من إحسان سيدنا عثمان وتصدقه

قالت عائشة رضى الله عنها : مكثنا أربعة أيام ما طعمنا شيئاً .

فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياعائشة هل أصبتم شيئاً بعدى ؟

قالت : لا ، فتوضأ وخرج يصلى ، هاهنا مرةً ، وهاهنا مرة ، ويدعو .

فجاء عثمان رضى الله عنه آخر النهار فقال : أين رسول الله ﷺ ، فأخبرته الخبر ، ثم خرج عثمان وبعث لنا دقيقاً وتمراً وغيره .

ثم قال : هذا يبطئ ، فأرسل خبزاً ولحماً مشوياً .

ثم جاء النبي ﷺ فقال : هل أصبتم شيئاً ؟ فأخبرته بما فعله عثمان فلم يجلس حتى خرج إلى المسجد ورفع يديه وقال : اللّهم إنى رضيت عن عثمان فارض عنه (قالها ثلاثاً) (نزهة المجالس)

ملحوظة ـ إن مافعله سيدنا عثمان مع آل بيت النبي ﷺ لا يسمى صدقة ؛ بل هدية : فشكره النبي ﷺ عليها بالدعاء .

فالواجب الاقتداء بسيدنا عثمان رضى الله عنه فى الإكثار من الهدايا لأنها كالصدقة وبذل المال لمن يستحقه.

اللذة والسرور فى فعل الخير ، لا فى أذى الغير

كان أحد أبناء الأغنياء فى نزهة مع مؤدبه فوصلا إلى حقل منفرد وكان ذلك قبيل الظهر ، فرأيا غلاماً يشتغل هناك وقد ترك حذاءه عند مدخل الحقل فخطر للصبي أن يخفى حذاءه ليرى ما يكون من حيرة الفلاح إذا طلبه ولم يجده فكأنه تصور لذة عظمى من رؤية غيره فى ارتباك واضطراب .

لكن مؤدبه لم يغفل عن اغتنام هذه الفرصة ليعظه بطريقة لطيفة فأشار عليه أن يضع ريالًا فى كل فردة من الحذاء ويشهد ما يكون من أمر الفلاح متلذذاً برؤيته فى حيرة .

ففعل التلميذ بإشارة معلمه ، ثم اختبأ الاثنان بحيث لا ينظرهما الفلاح ولا يفوتهما شىء من المنظر .

فلما صارت الشمس إلى كبد السماء ترك الفلاح شغله كعادته عند الظهر وجاء إلى حذائه ، ولما وضع فيه رجليه أحس بشيء فيه ، فبحث فوجد الريالين ، فخفق فؤاده فرحاً ، وخرّ ساجداً شكراً لله على هذه المنحة ، فقال : أشكرك يا إلٰهى من صميم فؤادى على هذه النعمة التى فرجت بها عن ضيق وكربى ، سبحانك يارحيم ، يا كريم : يا حنّان ، يا منّان .

فتأثر الغلام من مثل هذا المنظر وأخذ يدى معلمه قائلاً :

لك الشكر ياسيدى على ما علمتنى ، فقد هديتنى إلى أفضل طريقة يتوفر بها للإنسان السرور الصحيح ، واللذة الحقيقية .

فحبذا لو يقتدى بمثل هذا الفتى كل الفتيان ، فيعدلون عن الألعاب التى كثيراً ما تعود بالأذى عليهم وعلى الغير ، فيطلبون اللذة والسرور بفعل الإحسان والخير .

لذة الإنعام خير من لذة الطعام

دعا تاجر كثيراً من أصحابه وأحبابه لتناول طعام الغداء فى بيت له فى البرية على شاطئ البحر ، ووعدهم أن يطعمهم نوعاً من السمك البحرى الغالى الثمن والنادر الوجود .

فبعد أن قدم لهم أطعمة كثيرة أحضر فى آخر الأكل صحناً كبيراً مغطى ، فظن المدعوون أن فيه السمك الذى وعدهم به ؛ لكن حينما كشف الصحن وجد به بعض قطع ذهبية ، فأخذتهم الدهشة والاستغراب .

وأخذ التاجر يخاطبهم قائلاً : إخوانى وأحبابى ، إن السمك الذى وعدتكم بإحضاره غالٍ جدًّا حتى بلغ ثمنه فى هذه السنة ثلاث مرات مما كنت أظن ، وتباع السمكة الواحدة بعشرين فرنكاً . فخطر فى بالى أنه يوجد فى هذه البلدة رجل مريض فقير ، وهو وعائلته فى حالة بؤس شديد وأن المبلغ الذى يصرف فى تهيئة صحن السمك يكفى النفقة على هذه العائلة

السكينة مدة ستة شهور ؛ فإن رغبتم فى إحضار السمك فإنى مستعد لشرائه وتقديمه إليكم على جناح السرعة ؛ وإن رضيتم بأن أعطى ثمنه لتلك العائلة البائسة فتشاركوننى فى الإحسان إليها ، وإنى أستعيض هذا السمك بسمك آخر أقل ثمناً منه ، ولكن لا يقل لذةً عنه .

فجميع المدعوين استصوبوا رأى هذا الرجل المحسن الكريم ، وقام كل واحد منهم وأضاف قطعة ذهبية إلى تلك القطع التى كانت فى الصحفة . فنجت العائلة البائسة مما كانت فيه من الجوع والفقر ، وشعر المدعوون بلذة وسرور تام ، خير من لذة الطعام . ولقد صدق من قال : « عوضاً من أن تبذر مالك فى المآكل اللذيذة أسعف به الفقراء والمحتاجين لتكتب فى عداد المحسنين ، وتنال الفوز والنصر من رب العالمين » .

الأمير الفرنسى المحسن

تقابل ضابط متقدم فى السن وذو عائلة من ضباط العساكر مع الدوق (دى بيرى) الذى كان عمره وقتئذ اثنتى عشرة سنة بحديقة (فرساليا) فبينما كان يتمشى وحده بعيداً عن حاشيته سلمه الضابط الشيخ عريضة بين له فيها مدة خدمته الطويلة فى الجيش الفرنسى والحالة السيئة التى هو فيها الآن . فأجابه الأمير ببشاشة وحنو : ليس معى شىء فى هذا الوقت ؛ ولكن يمكنك أن تقابلنى غداً فى الصيد فأمنحك ما تريد .

ففى الميعاد المحدد أتى الضابط إلى المحل المعهود ووقف بالقرب من الأمير فلما وقع نظره عليه بَعُدَ قليلًا ، ثم اغتنم فرصة عدم وجود أحد ناظر إليه وأخرج من جيبه كيساً به ثلاثون ليرة وألقاه فى يد الضابط المسن . وكان هذا المبلغ مقدار مصروفه الخاص مدة شهر . ثم أوصاه بكتم هذا السر وإخفائه، ولكن اتفق أنه فى مساء يوم الصيد طلب الملك أن يلعب الشطرنج مع الأمير الفتى ، فاعتذر عن ذلك بأعذار مختلفة ، فتعجب الملك من امتناعه على خلاف عادته، وأخذ فى الإلحاح على حفيده ، فوقع الفتى فى حيرة شديدة لأنه لا يريد أن يكذب من جهة ، ويخاف أن يفتضح الأمر من جهة أخرى .

وأخيراً احتج بعدم وجود نقود معه ، فسأله الملك : ماذا فعلت بالدراهم التى أخذتها أمس ؟

فأجابه الأمير الصغير وهو على استحياء : ياوالدى العزيز لقد أعطيتها الضابط شيخ كبير من ضباط الجيش الفرنسى أصابه فقر مدقع، ولو كان معى أكثر منها لحرمت نفسى أيضاً شفقةً عليه ، ورأفةً به وبأولاده ، إذ لا شىء يؤلمنى أكثر من أن أرى فى حالة الضيق والبؤس جنوداً صناديد خدموا المملكة بإخلاص وأمانة .

فدهش الملك (لويس الرابع عشر) من حب حفيده للخير وحنو نفسه الكريمة ، وضمه إلى صدره ، ودعاه إلى أن يأخذ منه ما يريد من النقود حتى يمكنه أن يلعب معه ، وفضلًا عن ذلك أمر الملك بعلاوة مرتبه اثنى عشر فرنكاً يومياً ، وهذا نتيجة إحسانه .

ولقد صدق من قال : إن السعادة الحقيقية ، والمسرة الخالصة للإنسان هما قائمتان فى عمل البر والإحسان.

التفنن فى الإحسان

من ألطف ما قرئ فى تاريخ المحسنين حكاية عن (فرنكلان) الأمريكى وذلك : أن رجلاً غريباً بعث إليه برسالة يسأله شيئاً من المال يمكنه من العودة إلى وطنه ، فأجابه بقوله :

أخى العزيز ، وبعد فقد اتصل بى خطابك المؤرخ فى كذا ، فتأثرت مما بك من الضيق المالى ، وهأنذا مرسل لك عشر جنيهات ديناً عليك ، لا هبة إليك ، فبعد وصولك إلى وطنك سالماً لا تعدم واسطة تحصل بها على هذا المبلغ، فإذا تم لك ذلك، تبحث عن شخص يكون مثل ما أنت عليه الآن وتدفعه إليه ، شارطاً عليه أن يدفعها إلى من كانت حاله مثل حاله وهكذا .

وبذلك تكون أنت قد وفيت دينك، وأكون أنا بقليل من المال قد أنقذت خلقاً كثيرين ممن قعد بهم الدهر دون الوصول إلى أوطانهم .

(بحر الآداب ج ٢ ص ١٠٣)

الكرم والجود

كرم النبي صلى الله عليه وسلم

كان عليه الصلاة والسلام أكرم الناس خلقاً ومالًا ، لا يبارى جوداً وسخاءً وسماحة نفس ، وصفه بذلك كل من عرفه ، وكانت حاله فى ذلك قبل النبوة كما كانت بعدها .

فقد قالت له خديجة رضى الله عنها ، حين رجع إليها يرجف فؤاده بعد نزول الوحى عليه أول مرة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ « تقوم بالأمر العظيم » وتكسب المعدوم « تعطى المحتاج ما يعز فلا يوجد » وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وكان جابر بن عبد الله يقول : ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال : لا .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان .

وروى أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فقام إليها يقسمها فما رد سائلًا حتى فرغ منها .

كرم الحسن بن على

قيل للحسن بن على بن أبى طالب : لأى شىء نراك لا تردّ سائلًا وإن كنت فى فاقة ؟

فقال : إنى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلًا وأرد سائلًا ، وإن الله تعالى عودنى عادة ، عودنى أن يفيض علىّ ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة ، أن يمنعنى العادة ، وأنشد يقول :

« إذا ما أتانى سائل قلت مرحباً بمن فضله فرض علىّ معجل »
« ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يُسأل »

كرم صلاح الدين الأيوبى

إن كرم السلطان صلاح الدين الأيوبى كان أظهر من أن يسطر ، وأشهر من أن يذكر ، حتى أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد فى خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ومن الذهب إلا جرام واحد (صورى)

ويقال : إنه اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ، فأمر ببيع أشياء من بيت المال وصرف ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان رحمه الله يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة .

وكان أمناء خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه .

وكان يقول : من النـــاس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب فكأنه يقول عن نفسه .

وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمع قط يقول أعطينا لفلان .

وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن يعطيه شيئاً .

فكان رحمه الله يعطى ، ويكرم أكثر مما يعطى .

وكان مذ عرفه الناس يستزيدون فى كل وقت .

جود حاتم الطائى

من أعجب ما يحكى أن أحد قياصرة الروم أراد اختبار (حاتم الطائى) فى جوده وكرمه ، وكان قد بلغه أن له فرساً من جياد الخيل عزيزة عنده فأرسل إليه بعض حجابه يطلب منه الفرس هدية ، فلما جاء الحاجب ديار طىء سأل عن بيت حاتم حتى دخل عليه ، فاستقبله ورحب به وهو لا يعلم أنه حاجب الملك ، وكانت المواشى حينئذ فى المرعى ، فلم يجد إليها سبيلاً لإكرام ضيفه ، فنحر الفرس ، وأضرم النار ، ثم دخل إلى ضيفه يحادثه فأعلمه أنه رسول قيصر ، وأنه يستميحه الفرس ، فساء ذلك حاتماً وقال : هلا أعلمتنى قبـــل الآن ؟

فإنى نحرتها لك إذ لم أجد جزوراً غيرها بين يدى فعجب الرسول من سخائه وقال : والله لقد رأينا أكثر مما سمعنا .

وصار يضرب به المثل فى التكرم فيقال : أكرم من حاتم الطائى .

حكمة الفلاح وكرم كسرى

وجد كسرى فلاحاً طاعناً فى السن يغرس نخلًا .

فقال له متعجباً : أتؤمل أن تأكل من ثمر هـذا النخل وهو لا يثمر إلّا بعد سنين كثيرة وقد فنى عمرك ؟

فقال : أيها الملك غرسوا فأكلنا ، وغرسنا فيأكلون .

فقال متعجباً من كلامه : زِه (وهى كلمة فارسية معناها حسن جدًّا) . فأعطى الفلاح ألف دينار فأخذها وقال :

أيها الملك ، ما أعجل ماأثمر هذا النخل، فأعطاه ألف دينار أخرى فأخذها وقال : أيها الملك ، وأعجب من كل شىء أن النخل أثمر فى السنة مرتين ، فاستحسن ذلك كسرى وقال : زِه ، فأعطاه ألف دينار أخرى .

ثم تركه وانصرف .

سائل بباب أعرابي كريم

وقف سائل بباب أعرابي كريم فخرجت له فتاة كئيبة حزينة وبيدها دجاجة ، فقال لها : أين صاحب هذه الدار ؟

فقالت له : ثيابنا تجيبك على سؤالك .

فقال : أهو الذى حزنتم عليه ؟ لقد كان كريماً ، كنت إذا جئت إليه أعطانى ناقة .

فقالت له الفتاة : يا هـذا إن إعطاءه لك الناقة بالأمس هو الذى دعانا أن نعطيك الدجاجة اليوم .

كريم جاد بما عنده

قدم إبراهيم بن محمد المدينة ، فأتته عجوز من ولد الحارث ، فشكت إليه ضَنْك العيشة ، فقال لها : ما يحضرنى الكثير ، ولا أرضى لك بالقليل ، وأنا على ظهر سفر ، فاقبلى ما حضر ، وتفضلى بالعذر ، يا غلام ، ادفع إليها ما بقى من نفقتنا ، وخذى هذا العبد والبعير .

فقالت : بأبى وأمى ، أجزل الله فى الآخرة أجرك ، وأعلى فى الدنيا كعبك ، ورفع فيها اسمك ، وغفر لك يوم الحساب ذنبك ، فأنت والله كما قالت أم جميل بنت حرب :

« زين العشيرة كلها في البدو منها والحضر »
« ورئيسها في النائبا ت وفي الرحال وفي السفر »
« ورث المكارم كلها وعلا على كل البشر »
« ضخم الدسيعة[1] ماجد يعطي الجزيل بلا كدر »

حاتم الطائي جاد بروحه[2]

خرج حاتم إلى بعض القبائل فى حاجة فاجتاز بأسير عندهم يتوقع الفكاك ولو إلى الهلاك .

فلما سمع بمرور حاتم تنفس الرجاء ، وأخذ يصيح : أغثني يا أبا سفانة (بنت حاتم وبها يكنى وكانت مثله فى الجود ومكارم الأخلاق) وإلّا ذهب دمى هدراً، فالتفت حاتم فأبصر حيًّا فى صورة ميت قد أضنته جيوش الشدائد والأحزان، وهو بعيد عن الأهل والخلان ، فرثى له وتوجّه إلى سيد القوم، وسأله الإفراج عن الأسير ، وتعهد له بالفداء فأبى إلا أن يتقاضاه أول بدء .

فاستغرب حاتم إباء الرجل مع مثله ، وأطرق مفكراً فيما ينقذ به الأسير ، ويخلصه من هذا الخطب العسير ، وكأنه وجّه أفكاره إلى القتال ، وركوب حد النصال ، فدعاه سخاؤه المعروف : أدرك هذا الأخيذ (الأسير) ولو بالنفس والبدار البدار قبل أن يحل فى الرمس .

---

(١) الدسيعة : المائدة الكبيرة . (٢) سبق ذكرها مختصرة .

فانتصب قائلاً : ها أنا ضامن لأسيرك ، وراض أن أكون مكانه إلى أن يأتيك فداؤه ، فإنى لا أحب أن يقال : إن حاتماً بخل ولو بروحه .

فراقت السيد مروءته ، ولزم السكوت هنيهة متأملاً فى مقاله ، دهشاً من فعاله وانفعاله ، ثم أجاب :

عمّرك الله يا أخا طىء . طالما سمعت بجــودك حتى شاهدته عياناً ، وكفى بذلك برهاناً ، فإنى تحققت الآن أنك جدير بأن تسترق رقاب الأحرار ، وتملك على جميع القرى والأمصار ، إذ لم أجد لك فى الدنيا من نظير فاذهب بمن تفتديه أيها الأمير ، دمت جاراً لـكل مستجير .

فانصرف حاتم وبيده مفديه ، حتى إذا وصل إلى بعض مفارق الطريق قال له :

التحق بقومك ، وارجع إلى أمك ، كى تقر عينها فلا تحزن .

قال : إن جميلك هذا قد أثبت فى صميم قلبى شجرةً لن تزال تثمر الشـكر الطيب أهديه إليك ما دمت حيًّا .

فأجابه حاتم : دع القول ، فإن المسرة بالخير لفاعله ، أكثر منها لقائله .

ثم ودعه ولسان حاله يقول :

« إذا مرّ بى يوم ولم أتخذ يداً ولم أستفد علماً فما ذاك من عمرى »

(بحر الآداب ج ٢ ص ١٧٢)

مثال آخر

أراد رجل أن يتأسى بحاتم الطائى فى الكرم ، فصار يبذل ما فى وسعه ليصل فى الناس درجة حاتم ، فلم يفلح ، فرأى فى ذلك أنه ما دام حاتم موجوداً فلا يمكنه أن يصل إلى غرضه ، فسولت له نفسه أن يبعث إلى حاتم من يقتله فأوفد من أشرار العرب لقتل حاتم ، ثم جعل له جعلا فى نظير ذلك ، فلما وصل الرجل حى طىء قابل حاتماً ولم يعرفه ، فسأله عن حاتم الطائى وأراد أن يستعين بهذا الرجل على قضاء وطره ، فأسر إليه أمره ، وما هو آت إليه ، فدله حاتم على منزله بدون أن يريه نفسه ؛ فلما دخل أمر حاتم خدامه أن يوسعوا قراه ويزيدوا فى إكرامه .

فلما مضى أكثر من يوم ولم ير حاتماً ، سأل عنه فأخبروه أنه على سفر وسيحضر قريباً ، فانتظره ثلاثة أيام .

فبينما هو على هذه الحال إذ أقبل عليه حاتم وبيده سيف مسلول ، ففزع الرجل منه حينما تعرفه أنه ذلك الرجل الذى قابله وأراد أن يعينه على غرضه .

فقال له حاتم : لا تخف ، وخذ هذ السيف واضرب عنقى ، واذهب إلى سيدك وخذ منه ما وعدك به ، ولولا ضيق ذات يدى الآن لدفعت لك أضعاف ما أنت مؤجر عليه

فبهت الرجل ، وخرّ مغشيًّا عليه ، فلما أفاق استسمحه قائلًا : شُلّت يد تريدك بالسوء !

فزوّده حاتم بما في وسعه وذهب إلى حال سبيله .

فلما وصل حيّه أخبر صاحبه أنه لا يوجد أكرم من رجل جاد بروحه .

« يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود »

نبذة صغيرة

فى حياة الأئمة الأربعة وما تضمنته من فضائل

١ — الإمام أبو حنيفة النعمان

تورعه وزهده ، إباؤه تولى القضاء فى بغداد مع إلحاح أبى جعفر فى ذلك .

هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت فقيه العراق ، وقدوة أهل الرأى ، وصاحب المذهب المقضى به الآن فى أكثر الممالك الإسلامية .

ولد سنة ٨٠ هجرية بالكوفة ، وعاصر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه. وأخذ كل علمه عمن شافه الصحابة ، ونقل عنهم ، واستنبط فقهه من القرآن الكريم ، وما صح عنده من الحديث على قلته مع استعماله الرأى والقياس ، وتابعه فى ذلك بقية أهل العراق لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم ، وكثرتهم فى الحجاز ، وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد ، وتخرج عليه الأئمة من أصحابه كمحمد بن الحسن الشيبانى وأبى يوسف قاضى القضاة ببغداد وزفر بن الهُذيل التميمى .

وكانت صناعته بيع الخز (أى الحرير) وكان عالماً عاملاً ، زاهداً عابداً ، ورعاً تقياً ، كثير الخشوع ، دائم التضرع إلى الله .

وعُرض عليه القضاء من قبل أمراء بنى أمية فأبى ، ثم استدعاه أبو جعفر

المنصور من الكوفة إلى بغداد وطلب إليه أن يتولى القضاء فامتنع ، فحلف المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل وقال : إنى لن أصلح إلى قضاء .

فقال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين حلف ؟

فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر منى على كفارة يمينى ، فأمر بسجنه فى الحال ، فسجن وأوذى ، حتى قيل إنه مات فى سجنه رحمه الله ، سنة ١٥٠ هجرية .

قال الربيع : رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة فى أمر القضاء وهو يقول : « اتق الله ولا تشرك فى أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك » .

ثم لو تهددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو ألى الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك .

فقال أمير المؤمنين : كذبت أنت تصلح لذلك .

فقال له : قد حكمت لى على نفسى ، كيف يحل لك أن تولى قاضياً على إمامتك وهو كذاب ؟

وكان أبو حنيفة حسن الوجه ، عظيم الكرم ، حسن المواساة لإخوانه ، قوى الحجة جداً .

٢ — الإمام مالك

« وقاره وتعظيمه للدين ومواساته لغيره من الناس »

هو أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز ومَن قيل فيه : لا يُفتى ومالك بالمدينة .

ولد رضى الله عنه بالمدينة سنة ٩٧ هجرية ونشأ بها وأدرك خيار التابعين من الفقهاء ، ورحل إليهم ، وأخذ عنهم ، وجدّ وكدح حتى صار إماماً فى السُّنة ، وعرف الخلفاء قدره فأجلّوه وحملوا إليه طائل الأموال ، ووشى به بعضهم إلى عامل المدينة فأحضره وضربه سوطاً ، ولما بلغ ذلك الخليفة المنصور عزل الوالى وأقدمه إليه مهاناً محتقراً . وقابله فى العام القابل فى موسم الحج فاعتذر إليه وطلب إليه أن يجمع ماثبت عنده من السُّنة ويدونه فى كتاب ويوطئه للناس ، فاعتذر عن ذلك ، فلم يقبل منه عذراً فألّف كتابه (الموطأ) فى الفقه والحديث . وجاء ولى عهده المهدى من قابل حاجًّا فسمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار وألْف لتلاميذه .

كان رحمه الله أول أمره فقيراً ، ثم توالت عليه منح الخلفاء ، فحسنت حاله ، وأظهر نعمة الله وواسى أهل العلم وأشركهم فى ماله ، وكان منهم الشافعى رضى الله عنه .

كان رحمه الله حسن الهيئة والسير ، يكره الثياب الْخَلِقة ويعد ذلك مُثْلَة

وكان نقش خاتمه « حسبنا الله ونعم الوكيل » فسُئل عن ذلك فقال :

سمعت الله تعالى يقول عقيب هـــذه الآية : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » .

وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، يحوط فيـه المستفهم عن الشيء هيبةً شديدةً .

وكان لايحدث إلا وهو متوضئ ، ولا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراماً لبلد فيها جثة رسول الله ﷺ وكان يقول: أنا أستحى من الله أن أطأ تربةً فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة .

وكان يعظم الدين، ولا ينقطع من المسجد، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى ومواساة الفقراء ، وقضاء الحقوق . فلما كبر انقطع عن ذلك كله واحتمل له الناس ذلك .

وكان رحمه الله كامل النفس لايزداد مع الخلفاء عن الأدب الذى يوجبه عليه الدين .

قدم المهدى المدينة فبعث إليه بألفى دينار فقبلها ، ثم وجه إليـــه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة السلام فقال له : قل لأمير المؤمنين : المال عندى على حاله .

وكان وجوه بنى هاشم يقبلون يده ، ورزقه الله العافيـــة من ذلك ، وكان شديد الحرص على الدين أميناً على العلم .

قال جرير : إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على موطئه فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقدوا شديداً فدع الناس وما هم عليه .

وكان مالك إذا أراد أن يحدث الناس عن رسول الله ﷺ يغتسل ويتبخر ويتطيب فإذا رفع أحد صوته قال له : اخفض صوتك فإن الله تعالى يقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ » .

فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفعه عند صوته .

وكان رحمه الله شديد الكراهة للغيبة ، ومن قوله فيها : كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم ، فتكلموا فى عيوب الناس ، فصارت لهم عيوب ؛ وكان عندنا قوم لهم عيوب ، فسكتوا عن عيوب الناس ، فنسيت عيوبهم .

ارتفعت أمانة العلم عنده لدرجة لا تقوى عليها نفوس العالم فنزل منزلاً لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا .

جاءه رجل ليستفتيه فى مسألة فقال له : لا أحسنها .

فقال له : قد ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا وتقول لى لا أحسنها ، ماذا أقول لأهلى ؟

قال له : قل لهم سألت مالكاً فقال لى لا أحسنها .

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته بضربه فضرب ومدت يده حتى خلع كتفه .

ما زال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر سيدنا مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام ، وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة ، حتى كأن تلك السياط حلية تحلى بها وفضيلة سما قدره إليها .

توفى رحمه الله فى المدينة فى شهر ربيع سنة ١٧٩ هجرية ودفن بالبقيع (مقبرة المدينة) .

ومن حكمه : العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم .

ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يضعه الله تعالى فى القلب .

٣ — الإمام الشافعى

اشتغاله بالعلم وهو صغير — شهادة الإمام مالك بسعة علمه

هو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن شافع عالم قريش وإمام الشريعة وحبرها وأفضل من رأى الناسُ فصاحةً وقوّة حجة لم يناظر أحداً إلا ظهر عليه .

وُلد بالشام سنة ١٥٠ هجرية ثم حُمل إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها فقيراً تربيه أمه ، ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، وحفظ القرآن وهو ابن تسع ، وأولع بالشعر واللغة ، ورحل إلى البادية فى تطلبها ، ثم تفقه وحفظ موطأ مالك

وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، ثم رحل إلى مالك وقرأ عليه الموطأ حتى حفظه ، ثم رجع إلى مكة وعلم بها العربية والفقه ، وقد تولى بعض الأعمال في اليمن بمساعدة قاضي اليمن (مصعب بن عبدالله القرشي) فأحسن التصرف فيه ؛ ولكنه وشي به إلى الرشيد بتهمة التشيع لعلي ، وكانت اليمن مهد الشيعة الذين يكيدون لبني العباس ، فقبض عليه ، ثم تبين له براءته فأطلقه ووصله بجزيل العطايا .

قيل : مرّ به رجل من الزبيديين بمكة وهو ينشد الأشعار ويذكر الآداب ويروى الأخبار .

فقال له : ياأبا عبد الله عزيز عليّ أن لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه تسود به أهل زمانك .

فقال : ومن بقي يقصد ؟ فقال له : مالك سيد المسلمين .

فوقع في قلبه ذلك ، وعمد إلى الموطأ ، فحفظه ورحل إلى مالك فأخذ عنه الفقه .

وكان سيدنا مالك يثني على فهمه وحفظه ، وشهد له بسعة علمه ووصله بهدية لما رحل عنه ، وكان الشافعي يقول : مالك معلمي وأستاذي ، منه تعلمنا ، وما أجد أمنّ عليّ من مالك ، وقد جعلت مالكاً حجة بيني وبين الله .

دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه وأملى بها مذهبه القديم ، وفي سنة ٢٠٠هـ خرج إلى مصر وسكن (الفسطاط) فكانت دار هجرته ،

وأملى بها مذهبه الجديد بجامع عمرو ـ وكانت آراؤه وسطاً بين أهل الرأى من أصحاب أبى حنيفة وبين أهل الحديث من أمثال مالك وأحمد .

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر ، وكثر مقلدوه فيها ، ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر ، والبلاد القاصية لايعرفون حجةً بينهم وبين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى .

وكان رضى الله عنه كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، وقد ألف كتاب (الأم) وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه جمع بين حجة المأخذ ، وبين متانة العبارة ، فهو الأم الولود حقيقةً لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الأحكام .

وكان فى صباه يجالس العلماء ، ويكتب ما يستفيده فى العظام ونحوها حتى ملأ منها خبايا ، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وهو قطب الوجود يوم الجمعة سلخ رجب سنة ٢٠٤ ﻫ ودفن بالقرافة بعد العصر من يومه وانتشر علمه فى جميع الآفاق ، وتقدم على الأئمة فى الخلاف والوفاق وعليه حمل الحديث المشهور : عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً ، وفى رواية : لاتسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً .

قال جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد : هذا العالم هو الإمام الشافعى رضى الله عنه لم ينشر فى طباق الأرض من علم عالم ما انتشر من علم الإمام الشافعى .

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل : أنه سألته ابنته عن الإمام الشافعى وكان يعظمه كثيراً فقال لها : هو رجل كالشمس فى الدنيا ، والعافية فى البدن ، فإذا ذهبا هل لهما من خلف ؟

٤ — الإمام أحمد بن حنبل

تفانيه فى مبادئه — وثباته على الحق مع تعذيبه وحبسه

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى الأصل ، حافظ السنة ، وقدوة أهل الحديث . وُلد ببغداد سنة ١٦٤ هـ فى ربيع الأول ، ولم يربه أبوه لأنه تركه طفلًا . نشأ فى بغداد فى طلب العلم وخدمته ، وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ، وسمع من أئمة زمانه وكان الحديث قد كثرت رجاله ، وصنفت كتبه ، وتميز صحيحه من موضوعه ، فلقى العدد العديد من رجاله ، وجاب البلاد ، وطوّف الأمصار حتى حفظ مئات الألوف من الأحاديث وانتقى منها مسنده الذى ضمنه نيفاً وأربعين ألف حديث ، واستنبط مذهبه من السنة ، مشوباً بشىء من القياس والرأى ، وكان يعتنق مذهب الشافعى ، وهو من أكبر تلاميذه البغداديين .

نشأ عفيفاً مستقيماً ، يخاف الله ويخشاه ، فلا يتعدى محارمه أبداً .

روى أبو عبد الله قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتّاب ، وكان الخليفة بالرّقة ، ومعه خاصته فيكتبون الكتب إلى منازلهم ، فتبعث النساء إلى المعلم أن ابعث لنا بابن حنبل ليكتب لهم جواب كتبهم ، فكان إذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبداً حتى كان الناس يتعجبون من حسن طريقته وأدبه عند ذكره .

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، ورحل فكتب عن علماء كل بلد ، وأول من كتب عنه الإمام أبو يوسف ، وكان يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

واجتهد كثيراً فى نقل الأحاديث الصحيحة ، وبلغ ما نقل منها مقداراً عظيماً جدًّا ، فاق حد التصور ، وأعجب به معاصروه .

كان متأدباً غاية الأدب ، متواضعاً غاية التواضع ، يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباة ، فكان من فرط تعظيمه لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشىء ، ويجيب من يسأله فى ذلك : بأن الإنسان له لسان واحد وأذنان ، ليسمع أكثر مما يتكلم .

كان وحيداً فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ ، وكان يصلى العصر ثم يستند قائماً إلى أصل منارة المسجد ، فتحتاط به الناس يسألونه الحديث ، وهو يجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلب ، والكل قيام على أرجلهم لا يفرغ ولا ينتهون إلى أن تجب صلاة المغرب

لم يتزوج إلا بعد الأربعين سنة ، حتى لا يتشاغل عن العلم ، فبلغ من العلم ما أراد ، كأن علم الدنيا كان بين عينيه ، جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما شاء ، ويمسك ما شاء ، كان إمام المحدثين فى عصره وكان من أصحاب الإمام الشافعى ، ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر ، وقال الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .

مؤلفاته : المسند في الحديث ، وكتاب طاعة الرسول ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكلاهما في علم الأصول ، وتوفى رحمه الله ببغداد سنة ٢٤١ هـ ودفن في مقبرة باب حرب ، وحضر جنازته من الخلق ما لا يحصى ، وإليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الإسلامية ، ويعرف أتباعه بالحنابلة ، ومقلدوه قليل ، لبعد مذهبه عن الاجتهاد ، وأكثرهم بالشام والعراق . وكان كثيراً ما يتمثل بقول الصديق رضى الله عنه إذا مدحه مادح : اللّهم أنت أعلم منى بنفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللّهم اجعلنى خيراً مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون . ومذهبه منتشر في بلاد نجد والحجاز ولما انتشرت فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون ، سيق الإمام أحمد بن حنبل إلى الحكومة ، وحمل على أن يقول بأن القرآن مخلوق مشايعة للرأى الرسمى إذ ذاك فلم يقلها ، وثبت على الحق ، فضرب وحبس وهو مصرّ على الامتناع ، وكان ضربه سنة ٢٢٠ هـ .

وكان رحمه الله حسن الوجه ، ربعة يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقانى وكان في لحيته شعرات سود ، أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل منهم : محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى ، ولم يكن آخر عصره من يدانيه في علمه وورعه .

وكان يضرب به المثل فى التمسك بمبادئه ، وهو اتباع السنة ، واجتناب البدعة .

اللّهم وفقنا لاتباعها ، والعمل بها ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أولًا وآخراً .

﴿ تم بعون الله الجزء الثالث ، ويليه إن شاء الله الجزء الرابع ﴾

الفهرس

﴿ تمت ﴾

السمير المهذب

سلسلة قصصية اسلامية هادفـــة

مـــن اربعـــة اجـــزاء

يطلب مـــن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان